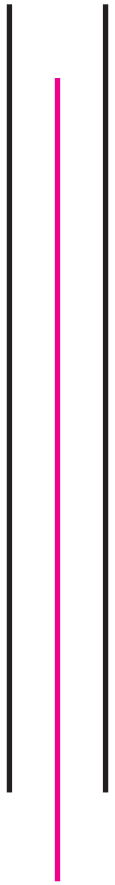

25 قصه

من أروع قصص القرآن والسنة

25 قصه
من أروع
قصص القرآن
والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع
٢٠١٨/٨٩٣٩

دار المجد للنشر والتوزيع

ش عمر بن عبد العزيز - خلف مديرية الزراعة - طنطا

ت: ٠٤٠٣٢٧٤٠٢١ - ٠١٠٠٤٩٧٧١٤٢ - ٠١١١٣٥٧٥٩٩٥

E-mail: elmagdbook@yahoo.com

25 قصة

من أروع قصص القرآن والسنة

قصة وعبره من القرآن وصحيح السنة

كتبــه الفقير إلى عفو ربه

عبد الرحمن بن محمد المصري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

لمجد للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

أما بعد،،

فمن رحمة الله تعالى أنه ذكر في كتابه قصص للأنبياء وغيرهم، ليأخذ منها الناس الدروس والعبر التى تكون سببًا لنجاتهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وهذه القصص سبب لتثبيت قلب العبد من الفتن كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

ولقد سمى الله تعالى قصصه أحسن القصص كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وقصص الله تعالى قصص حق كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، لأنها قصص حقيقية وليست خيلات، والتخاريف والأكاذيب التي ينخدع بها الناس كالأفلام والمسلسلات والروايات التي جعلها أصحابها تجارة لكسب الأموال واللعب بعقول الشباب ولا حول ولا قوة إلا

بالله، وذكرنا بفضل الله وحده القصص الذي ذكر في القرآن، والصحيح الذي ذكر في السنة، ثم ذكرنا الدروس والعبر المستفادة من كل قصه حتى ينتفع بها المسلم في حياته وتكون له نور في الطريق إلى الله تعالى.

فأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعله لوجه الله خالصًا وأن ينفع به أمة الإسلام وأن يجعلنا ممن إذا ذُكر تذكر.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين.

كتبه

الفقير إلى عفو ربه

عبد الرحمن بن محمد المصري

قصة البقرة

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧].

يقول تعالى واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم.

ذكر بسط القصة

عَنْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ قَالَ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقِيمٌ لَا يُولَدُ لَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ ابْنُ أَخِيهِ وَارِثَهُ، فَقَتَلَهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ لَيْلًا حَتَّى أَتَى بِهِ حَيًّا آخَرِينَ فَوَضَعَهُ عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَدَّعِيهِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى تَسَلَّحُوا وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ وَالنَّهْيِ: عَلَى مَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكُمْ، فَأَتَوْهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧]، قَالَ: فَلَوْ لَمْ يَعْتَرِضُوا الْبَقَرَ لَأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ أَدْنَى بَقَرَةٍ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَقَرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا، فَوَجَدُوهَا عِنْدَ رَجُلٍ لَيْسَ لَهُ بَقَرَةٌ غَيْرَهَا، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْقُصُهَا مِنْ مِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا، فَأَخَذُوهَا بِمِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا، فَذَبَحُوهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا، فَقَامَ، فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: هَذَا، لِابْنِ أَخِيهِ،

ثُمَّ مَالَ مَيِّتًا، فَلَمْ يُعْطَ ابْنُ أَخِيهِ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، وَلَمْ يُوَرَّثْ قَاتِلٌ بَعْدَهُ».

[السنن الكبرى للبيهقى]

عن أبى العالية: فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ قال كان رجل من بنى لإسرائيل وكان غنيًا ولم يكن له ولد وكان له قريب وكان وارثه فقتله ليرثه ثم ألقاه على مجمع الطريق وأتى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فقال له قريبى قتل وإنى إلى أمر عظيم وإنى لا أجد أحدًا يبين لى من قتله غيرك يا بنى الله، قال: فنادى موسى فى الناس فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا يبينه لنا، فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال له أنت نبى الله فسل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ فعجبوا من ذلك فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾[البقرة: ٦٧-٦٨]، يعنى لا هرمة ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾: يعنى ولا صغيرة ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾: أى نصف بين البكر والهرمة ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾،أى صاف لونها، ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: أى تعجب الناظرين، ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَاۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ أى لم يذللها العمل، ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ﴾ يعنى وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث يعنى ولا

تعمل فى الحرث ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾: يعنى مسلمة من العيوب، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾:يقول لا بياض فيها، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: قال: ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ولولا أن القوم استثنوا فقالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون لما هدوا إليها أبدًا فبلغنا لم يجدوا البقرة التى نعت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى وهى القيمة عليهم فلما علمت أنه لا يزكوا لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن فأتوا ميسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلاتة وأنها سألت أضعاف ثمنها، فقال موسى إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها، ففعلوا واشتروها فذبحوها فأمرهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يأخذوا عظمًا منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع إليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتًا كما فأخذ قاتله الذى كان أتى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فشكا إليه فقتله الله على أسوا عمله.

وقال السدى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ قال كان رجل من بنى إسرائيل مكثرًا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته لإابى أن يزوجه فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمى ولآخذن ماله، ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته فأتاه الفتى وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل فقال يا عم انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء

القوم لعلى أن أصيب منها فإنهم إذا رأوك معى أعطونى فخرج العم مع الفتى ليلًا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدرى أين هو فلم يجده فانطلق نحوه فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال قتلتم عمى فأدوا إلى ديته، فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه وينادى واعماه فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية فقالوا له يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية فوالله إن ديته علينا لهينة ولكن نستحى أن نعير به فذلك حين يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢]، فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتهزأ بنا: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]، قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشّدد الله عليهم فقالوا: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٦٨]، والفارض الهرمة التى لا تولد والبكر التى لم تلد إلا ولدًا واحدًا والعوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها: ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [٦٨-٦٩]، قال نقى لونها، ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾: قال تعجب الناظرين، ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ

﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٠-٧١]، من بياض ولا سواد ولا حمرة، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ فطلبوها فلم يقدروا عليها وكان رجل فى بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه وإن رجلًا مرّ به معه لؤلؤ يبيعه وكان أبوه نائمًا تحت رأسه المفتاح فقال له الرجل: تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفًا؟ فقال له الفتى كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك ألفًا؛ قال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفًا فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفًا وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف فلما أكثى عليه قال والله لا أشتريه منك بشيء أبدًا وأبى أن يوقظ أباه فعوضه من ذلك اللؤلؤ أن يجعل له تلك البقرة فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة فأبى فأعطوه اثنتين فأبى فزادوه حتى بلغوا عشرًا. فقالوا والله لا نتركك حتى نأخذها منك فانطلقو به إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقالوا: يا بنى الله إنا وجدناها عند هذا وأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمنًا فقال له موسى: أعطهم بقرتك فقال: يا رسول الله أنا أحق بمالى فقال: صدقت وقال للقوم أرضواصاحبكم فأعطوه وزنها ذهبًا فأبى فأضعفوه له أعطوه وزنها عشر مرات ذهبًا فباعهم إياها وأخذ ثمنها فذبحوها، قال اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التى بين لكتفين فعاش فسألوه من قتلك فقال لهم ابن أخى قال: أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنيه. فأخذوا الغلام فقتلوه وهذه السياقات فيها اختلاف والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها

ولكن لا تصدق ولا تكذب فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨-٧١].

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم وهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لو قعت الموقع عنهم ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾، أى ما هذه البقرة وأى شيء صفتها قال: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أى لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عوان بين ذلك يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة وهى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون. وقال السدى العوان النصف الثانى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها.

﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ تكادتسود من صفرتها وقال سعيد بن جبير ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال صافية اللون. وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقال السدى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أى: تعجب الناظرين. وقال وهب بن منبه إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها. وفى التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ فى التعريب، أو كما قال الأول إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى: لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بينتها لنا، ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾: إليها وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم**»، وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة والله أعلم. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: أى إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى الساقية بل هى مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أى: ليس فيها لون غير لونها، وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق لاشية فيها، قال مجاهد لا بياض ولا

سواد، وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ليس فيها بياض وقال عطاء الخراسانى لاشية فيها قال لونها واحد بهيم، وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾، ليست بمذلة بالعمل ثم استأنف فقال: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أى: يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقى الحرث وهذا ضعيف لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث، كذا قرره القرطبى وغيره، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: الآن بينت لنا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقيل ذلك والله جاءهم الحق.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذى أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفى هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها. وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها وفى هذا نظر لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل كما تقدم عن عكرمة قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير وهذا إسناد جيد عن عكرمة والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضًا.

وقال ابن جرير وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه ولم يسنده عن أحد ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة وفى هذا نظر بل الصواب والله أعلم ما تقدم عن ابن عباس على ما وجهناه وبالله التوفيق.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

قال البخارى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم وهكذا قال مجاهد وقال عطاء الخراسانى والضحاك اختصمتم فيها، وقال ابن جريح: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾، قال: قال بعضهم أنتم قتلتموه، وقال آخرون بل أنتم قتلتموه.

عن صدقة بن رستم سمعت المسيب بن رافع يقول ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله وتصديق ذلك فى كلام الله ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾، هذا البعض أى شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينًا فى نفس الأمر فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يجىء من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما الله ولهذا قال ابن عباس

قال إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طكلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل فى بقر له وكانت بقرة تعجبه قال فجعلوا يعطونه بها فيأبر حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها فضربوه ـ يعنى القتيل ـ بعضو منها فقام تشحب أوداجه دمً فقالوا له من قتلك قال قتلنى فلان، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنه ضرب ببعضها، وفى رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه ضرب بالعظم الذى يلى الغضروف. وقال قتادة ضربوه بلحم فخذها فعاش فقال قتلنى فلان وقال عكرمة: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ فضرب بفخذها فقام فقال قتلنى فلان وقال السدى فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسألوه فقال قتلنى اب أخى وقال أبو العالية أمرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذوا عظمًا من عظامها فيضربوا القتيل ففعلوا فرجع إليه روحة فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتًا كما كان، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض أرابها وقيل بلسانها وقيل بعجب ذنبها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ أى: فضربوه فحيى ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل جعل تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلًا ما كان بينهم من الخصومة والعند، والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٦]، وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم

وهم ألوف حذر الموت وقصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها وقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والطيور الأربعة، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

[يس: ٣٣-٣٥]

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

يقول تعالى توبيخًا لبنى إسرائيل وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾، كله فهى كالحجارة التى لا تلين أبدًا ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[الحديد: ١٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط فقيل له من قتلك قال بنو أخى قتلونى ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعنى أبناء أخى

الشيخ فهى كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال مجاهد إنه كان يقول كل حجر يتفجرمنه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]، أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾، وقال أبو على الجيانى فى تفسيره ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ هو سقوط البرد من السحاب قال القاضى الباقلانى وهذا تأويل بعيد وتبعه فى استبعاده الرازى وهو كما قال فإن هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم.

وقال يحيى بن يعقوب فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ قال كثرة البكاء، ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ ﴾ قال: قليل

البكاء، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: قال بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار فى قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]، قال الرازى والقرطبى وغيرهما من الأئمة ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، الآية وقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ [النحل: ٤٨]، الآية: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١]، الآية. ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ [فصلت:٢١]، الآية. وفى الصحيح: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» وكحنين الجذع المتواتر خبره. وفى صحيح مسلم: عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ» [مختصر تفسير ابن كثير بتحقيق الشيخ هانى الحاج].

الدروس والعبر من القصة

١ - إخبار النبى ﷺ بأمور غيبية.

وتذكر لليهود بما مضى من أحداث وقصص كانت لهم مع سيدنا موسى عليه السلام لا يعلمها إلا علمائهم وقد أخبرهم بها رسول الله ﷺ وهى لا

تعرف إلا عن طريق وحي من الله تعالى فقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم ذكر الأمم السابقة وخلق آدم ولا أحد يقدر أن يعلم هذه الأمور إلا أن يكون رسول يوحى إليه من الله تعالى.

٢- هذه القصص من الله تعالى.

نأخذ منها العبر ونتعلم منها كيف الطريق إلى الله وكيف نتعامل معه سبحانه وكيف نتعامل مع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣- هذه القصص سبب فى تثبيت المؤمنين.

عندما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء فى سورة هود وبيَّن الله تعالى أنه أمر أقوام الأنبياء بالتوحيد وعدم الشرك وطاعة أنبيائه فأهلاك الذين أشركو معه ألهة وعصو رسله وأن مصيرهم إلى النار والخزى فى الدنيا، وأنجا الله تعالى رسله وأتباعهم وأن العاقبة والنصر لهم فى الدنيا وأن سبيلهم إلى جنات عدن خالدين فيها أبدا، ثم ذكر الله تعالى فى ختام سورة هود أن من أعظم أسباب ذكر قصص الأنبياء وغيرهم من القصص هو تثبيت قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثم أتباعه من بعده فقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[هود: ١٢٠]

٤- أن هذا القصص الحق.

فالله تعالى يعلم أن الناس يحبون القصص ولذلك تجد الناس يسمعون الأفلام والمسلسلات ويبكون وهم يعلمون أنها ليست حقيقة بل ملىء بالمخالفان الشرعية من تبرج واختلاط وشركيات وأغانى وغيرها من المعاصى، فقال تعالى عن قصصه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران:٦٢]، لأن قصص الله تعالى حق ليس فيه كذب ويتعلم الإنسان منها الخير وترك الشر ويعرف سبيل الأنبياء وسبيل الكفار المجرمين، بل إن الله تعالى وصف قصة يوسف أحسن القصص فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

٥- أن أمر الأنبياء أمر من الله تعالى.

كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فى بداية القصة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]

وكذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

٦- سوء أدب اليهود مع الله تعالى.

فقالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾، ولم يقول ادع لنا ربنا وكأنه رب موسى وليس ربهم وهذا من قمة سوء الأدب مع الله تعالى وقد أسأوا الأدب مع الله تعالى فى غير موضع فى القرآن مثل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾.

[آل عمران: ١٨١]

وقد قال عالم من علماء الإسلام وهو يعيب على الخطيب وهو يخطب ويقول قال ربكم، قال نبيكم، فقال العالم الأفضل أن يقول قال ربنا قال نبينا فيشرف نفسه بذلك كما قال القائل:

وكـــــــــــدتُ بـــأخمـــص أطىء الـــــثريـــــا

دخـــولى تحت قولك يا عبادى وأن ســـيرت لى أحمـــد نبيا

٧- سوء أدب اليهود مع سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

عندما قالوا له: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧].

وهذا من سوء أدبهم كيف يقولون لرسول من أول العزم وكليم الله عَزَّوَجَلَّ وخط له التواره، بل فعلو أكثر من ذلك مع أنبياء الله قاتلوهم كما قتلو زكريا ويحيى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ وقد وصفهم الله بذلك قال تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

٨- قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

٩- قلوب اليهود أشدا القلوب قسوة.

لأنهم أبعد الناس عن طاعة الله وأسرع الناس لمعصية الله وهذا أعظم سبب لقسوة القلوب كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣]، وأرق الناس قلوبنا هم الذين يطيعون الله تعالى ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

١٠- التبين من الحقيقة.

وعدم رمى الناس بالتهم حتى يثبت ذلك عليهم بيقين.

١١- المؤمنون هم الذين ينتفعون بأيآت الله الكونية والقرآنية.

كما قال تعالى في الآيات الكونية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

***

قصة النمرود مع سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه وهو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ويقال نمرود بن فالخ بن عابد بن شالخ بن أرفخذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد وغيره.

قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، المؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين والكافران نمرود وبختنصر والله أعلم ومعنى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أى: بقلبك يا محمد، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ أى: وجود ربه وذلك أنه أنكر أن يكون إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وصول مدته فى الملك وذلك أنه يقال إنه مكث أربعمائه سنة فى ملكة ولهذا قال: ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلًا على وجوب الرب الذى يدعو إليه فقال إبراهيم: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أى: إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار

ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلابد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج وهو النمرد ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد، وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقها القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا فى معناه لأنه مانع لوجود الصانع وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت كما اقتدى به فرعون فى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، أى: إذا كنت كما تدعى من أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهًا كما تدعى تحيى وتميت فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزة وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بهت أى أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى: لا يلهمهم حجة ولا برهانًا بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد، وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويبين

بطلان ما ادعاه نمرود فى الأول والثانى ولله الحمد والمنة وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة وروى عبد الرازق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى عنى إذا قدمت إليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا فعلمت طعامًا فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به فعلم أنه رزق رزقهم الله عَزَّوَجَلَّ قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس وأرسل الله عليهم بابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظامًا بادية ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك فمكثت فى منخرى الملك أربعمائة سنة عذبه الله بها فكان يضرب برأسه بالمرازب فى هذه المدة حتى أهلكه الله بها.

[مختصر تفسير ابن كثير]

الدروس والعبر من القصة

١ - أن الملك يؤتيه الله من يشاء من عباده.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٢ - هذه الآية تدل على جواز تسمية الكافر مَلكا.

إذ آتاه الله المُلك والعز والرِّفعة فى الدنيا، وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة وهى القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾[يونس: ٦٨]، أى من حجة، وقد وصف خصوصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه وردّه عليهم فى عبادة الأوثان كما فى سورة الأنبياء وغيرها، وقال فى قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٢-٣٥]، وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآيات، فهو كله تعليم من الله عَزَّوَجَلَّ السؤال والجواب والمجادلة فى الدِّين، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل وجادل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أهل الكتاب وبأهلهُم يعد الحجة، وتجادل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم السقيفَه وتدافعوا وتقرّوا وتناظروا حتى صدر الحق فى أهله، وتناظروا بعد مبابعة أبى بكر فى أهل الردّة إلى غير ذلك مما يكثر إيراده، وفى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]، دليل على أن الإحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر، قال المزنى صاحب الشافعى: ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عَزَّوَجَلَّ وأن، يُقبل منها ما تبين، وقالوا: لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستويين فى مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف وإلا فهو مراء ومكابرة [تفسير القرطبى].

٣- مناظرة سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون حفيد النمرود فى الإلحاد.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٨]، يذكر تعالى ما كان بين موسى وفرعون من المقاولة والمحاجة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية ثم الحسية، وذلك أن فرعون - قبحه الله - أظهر جحد الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَى وزعم أنه الإله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [النازعات:٢٣-٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨]، وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ [النمل:١٤]، ولهذا قال لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على سبيل الإنكار لرسالته وإظهار أنه ما ثمَّ رب أرسله ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]؛ لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٦]، فكأنما يقول لهما: ومن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما، فأجابه موسى قائلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [مريم:٦٥]، أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه له هو الله الذي خلق الأشياء كلها للعالم العلوي وما فيه من الكواكب النيرات والثوابت والسيارات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وأنهار وقفار وجبال وأشجار وحيونات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير والسحاب المسخر والرياح والمطر وما يحتوي عليه الجو وغير ذلك من المخلوقات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين الجميع مذللون مسخرون وعبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، أي: إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة ﴿قَالَ ﴾ [البقرة:٣٠]، أي: فرعون، ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ [الشعراء:٢٥]، من أُمرائه وكبرائه ورؤساء دولته على سبيل التهكم والتنقص والاستهزاء والتكذيب لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما قال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٥]، أي: ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري، فقال لهم

موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦]، أي: هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق ولا أبواه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث وإنما أوجده وخلقه رب العالمين، وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، ومع ذلك كله لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته؛ بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًّا غيري. ﴿قَالَ﴾ [البقرة:٣٠] أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبه فأجاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨] أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسيارتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها وهو الله لا إله إلا هو خالق الظلام والضياء السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره، وتسييره سائرون وكل فى فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء؛ فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا، والثابت سائرًا والسائر ثابتًا كما قال تعالى عن الذي حاج إبراهيم في ربه في الآية السابقة، ولما قامت الحجج على فرعون وذهبت

شبهه وغُلب وانقطعت حجته، ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال جاهه وقوته، وسلطانه وسطوته، واعتقد ان ذلك نافعًا له ونافذًا في موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقال وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩] [المصدر السابق].

٤- تعجيز أهل الباطل بإقامة الحجة عليهم.

فسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكثر الكلام مع النمرود فى عندما قال له: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فهذا الجاهل لم يقل له سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إن الله عَزَّوَجَلَّ يُحيى من العدم ويُميت من يشاء من مخلوقات فى أى وقت شاء وبأى سبب شاء، ولكن سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ غير المناظرة وقال له شيء لا ينكره أحد بأن الشمس تشرق بإذن ربها من المشرق وتغرب بإذن ربها من المغرب، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٥- السلطة من أعظم أسباب الكبر.

٦- إنكار النمرود لتوحيد الربوبية.

فلا ينكر ربوبية الله تعالى إلا الملاحدة.

٧- **ما هو توحيد الربوبية؟** توحيد الربوبية: وهو إفراد الله تعالى بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والنفع، والضر، والملك التام، والأمر، والنهي، والسيادة.

والخلاصة: أن توحيد الربوبية هو: توحيد الله تعالى بأفعاله؛ بأنه هو الذي يملك الإحياء، والإماتة، والخلق وحده، وهو الذي يملك الرزق، والتدبير وحده، وهو الذي له الأمر، والنهي، والسيادة وحده، فلا يشاركه أحد في هذه الأفعال، لا ملك مقرب، ولا رسول مرسل، ولا ولي من أولياء الله؛ لأنهم كلهم مخلوقون مفتقرون محتاجون إلى الله تعالى، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، أي: رب العالَمَيْنِ العلوي والسفلي بجميع النعم الظاهرة والباطنة، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٤٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

[لقمان:١١]

٨- ما هو توحيد الأولوهية؟

هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بجميع أنواع العبادة الظاهرة، والباطنة، قولًا، وعملًا، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله كائنًا من كان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

[النساء:٣٦]

والخلاصة: أن توحيد الألوهية هو: توحيد الله وحده لا شريك له بالعبادة قولًا، وعملًا، باطنًا، وظاهرًا.

والإله: هو المعبود المطاع، الذي تألهه القلوب، وتشتاق إليه، وتحبه.

تعريف العبادة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال، الباطنة، والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله»[1].

وبناء على ذلك؛ فإنه لا يجوز صرف أي عبادة من العبادات ـ سواء القولية أو الفعلية، الظاهرة أو الباطنة ـ إلا لله وحده لا شريك له، ومن صرف أي عبادة لغير الله تعالى؛ فقد وقع في الشرك في عبادة الله تعالى.

(١) «مجموع الفتاوى»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١٠/ ١٤٩ - ١٥٠).

٩- ما هو توحيد الأسماء والصفات؟

والقاعدة في هذا الباب: نؤمن بكل ما وصف الله تعالى به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل»؛ وذلك عملًا بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ فنثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، وننفى ما نفاه الله تعالى عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ فأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلها حسنى، وصفاته كلها عُلى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

ومعنى أحصاها؛ أي: حفظها، وأطاقها، وتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بها، فيدعو الله تعالى بها، وهذا معنى أطاقها؛ أي: أطاق القيام بحق كل منها؛ فتعبد الله باسمه: البصير، وباسمه: الشهيد؛ فلا يراك فى معصية، وإن زلت قدمك في معصية تبادر إلى التوبة والاستغفار؛ فتعبد الله باسمه: التواب، والغفور،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري [٧٣٩٢]، ومسلم [٦] [٢٦٧٧].

وتعبد الله باسمه: السميع، والعليم؛ فلا تتكلم إلا بكلام يرضي الله تعالى، وتعبد الله باسمه: الرزاق؛ فلا تطلب الرزق إلا منه وحده، وتعبد الله بسائر أسمائه كذلك.

واعلم - أخي المسلم الحبيب - أن أسماء الله تعالى ليست منحصرة في التسعة والتسعين المذكورة في الحديث السابق، بل هي أكثر من تسعة وتسعين؛ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»، والشاهد قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»؛ أي: أن الله تعالى له أسماء لا يعلمها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١٠ - أكثر الكفار أثبتوا توحيد الربوبية ولم يثبتوا توحيد الألوهية.

قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

[الزخرف:٨٧]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: مَن خلق السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به».

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

[إبراهيم:١٠]

فهؤلاء لم يُنكروا البارىء، ولا جحدوا الصانع، بل عرفوه وإنما جهلوا نعوته المقدسة وقالوا عليه ما لا يعلمون والمؤمن عرف ربه بصفات الكمال، ونفى عنه سمات النقص فى الجملة، وآمن بربه، وكف عما لا يعلم فبهذا يتبين لك أن الكافر عرف الله من وجه وجهله من وجوه.

[الشهادتان أول واجب على كل إنسان]

ولكنهم لم يوحد الله تعالى في إلوهيته ولم يصرفوا العبادة كاملة لله عَزَّوَجَلَّ بل أشركوا فى عبادته كما قال تعالى عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣].

وقال تعالى عنهم: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٥٩-٦٠].

يقول الله تعالى في آخر آية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى استفهام هل مع الله إله؟ كما ظنه بعضهم الأن، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قا ل تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام:١٩] [العقيدة الطحاوية].

وعن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ لأبي: «**يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ اليَوْمَ إِلَهًا**»؟ قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ**»؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ»[(١)].

١١ - الفرق بين المشرك والملحد.

الشرك والإلحاد كلاهما انحراف عن الإيمان والتوحيد، وكلاهما انتكاس يصيب البشرية حين ينحدرون إلى الجاهلية، فينحرفون عن الفطرة السوية التي خلقهم الله عليها.

والفرق بين الشرك والإلحاد

١ - أن المشرك يعرف أن الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق هذا الوجود ومدبر أمره، لكنه لا يُفرده بالعبادة، فيعبد آلهة أخرى مع الله أو من دون الله، يقدم لها شعائر التعبد، ويجعلها واسطة بينه وبين ربه، أما الإلحاد في اصطلاح المعاصرين،

(١) أخرجه البخارى فى (خلق أفعال العباد)، والترمذي (٥/ ٥١٩)، والطبراني فى (الكبير) [٣٩٦].

فهو إنكار وجود الله تعالى أصلًا، فالملحد هو الذي ينكر وجود الله أصلًا، وينسب الخلق والموت والحياة لغير الله تعالى، ولا يؤمن بالبعث فالمشرك يقول «لا خالق إلا الله»، والملحد يقول «لا خالق».

٢- أن الشرك هو الإنحراف الغالب على البشر في جاهليتهم خلال عصور التاريخ المختلفة، أما الإلحاد فنادر، فيما عدا العاقائد الجاهلية المعاصرة التي انحدر الناس فيها، وغلب عليها الإلحاد بصورة لا مثيل لها في التاريخ من قبل.

أما الفرق بين الكفر والإلحاد، فإن الكفر أعم من الإلحاد، فالكفر يشمل عدة شُعب وصور، والإلحاد إحدى هذه الصور وهي كفر الجحود، قال الإمام المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكفر كفران: كفر جحود بالله وبما قال؛ فذلك ضد الإقرار بالله والتصديق به، وبما قال[1].

والكفر خصال عديدة، ومن بعض خصاله الشرك الذي يضاد التوحيد [الشهادتان أول واجب على كل إنسان].

١٢- الكافر والملحد لا عقل له.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٠).

فالأنعام أفضل من الكافر والملحد لأن الأنعام تعرف ربها وتعبده كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء:٤٤].

فكل من فى السموات والأرض يسبح بحمد الله إلا الغافلون من الإنس والجن ومن رحمة الله أنه ختم الآية باسم الحليم أى أنه حليم عليهم لا يعجل لهم العذاب، واسم الغفور أي أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر لمن آمن وتاب ورجع إليه.

فلا تغتر بكافر أو ملحد ولو وصل إلى أعلى المناصب الدنيوية فعالم الذرة يعبد غير الله والذين زعموا أنهم صاعدوا إلى القمر لم يعرفوا رب القمر كما قال تعالى عنهم: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٨].

قال ابن كثير: يَعْنِي الْكُفَّارُ يَعْرِفُونَ عُمْرَانَ الدُّنْيَا وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ.

١٣ - الأدلة على وجود الله تعالى.

أولا - الفطرة دليل يقيني على التوحيد ومعرفة الله.

تعريف الفطرة لغةً: هي الإبتداء والخلق، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:١]، أي: خالقهما ومبتدئهما.

أما اصطلاحًا: فهي (الإسلام) في مذهب أكثر الصحابة والتابعين والأئمة.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن كل إنسان يولد على خِلقة مقتضية للتوحيد، وما يتضمنه من معرفة الله والإقرار بوجوده، وأن مقتضى هذه الفطرة لابد أن يتحقق إذا انتفت الموانع الصارفة عن ذلك.

ومن هذه الأدلة

أ- قول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

ووجه الدلالة الآية على فطرية التوحيد هو أن الأمر بالإستقامة على الدين الحنيف اقترن ببيان أن ذلك هو مقتضى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وأن خلق الله للناس على تلك الفطرة سنة مطردة لا تبديل لها.

ب- قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٤].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقُولُ الله لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ:

قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»[1].

في جملة من الأحاديث والآثار التي تدل على أن الفطرة هي الإسلام، ووجه دلالتها على ذلك هي أن هذا الإشهاد على معرفة الله وتوحيده جعل هذه المعرفة والتوحيد علمًا ضروريًا لابد من تحققه فى كل أحد، فلا يُحتاج فى معرفته إلى النظر والإستدلال، بل هو فطري ضروري في كل أحد، وهذا هو مقتضى القول بأن الفطرة هي الإسلام.

إذن هذا الميثاق الذي أخذه الله من بني آدم، وأشهدهم عليه، هو ما يُفطر عليه كل مولود منهم، ولا يحتاج إلى مُوجبٍ من خارج.

ث- دلت آيات القرآن الكريم على أن جميع الرسل افتتحوا دعوتهم بقولهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وأول أمر في (المصحف الشريف) هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

وذلك لأن معرفة الله فطرية ضرورية أولية، وهي أشد رسوخًا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين.

---

(١) رواه البخارى [٣٣٣٤]، ومسلم [٢٨٠٥].

فمن ثمَّ دعا الأنبياء - أولَ ما دَعَوْا - قومهم إلى عبادة الله وحده؛ لأنهم - بحكم الفطرة - يعرفون الله، فإذا دُعوا إلى الإقرار بوجود الله تعالى أولًا؛ كان ذلك تحصيل حاصل، وهم لا يُؤمرون بتحصيل الحاصل، وإذا دعوا إلى عبادته وحده تضمن ذلك الأمر أنهم يعرفونه.

فلم يكن الله ليدعو خلقه إلى عبادته وحده، وهو لم يعرِّفهم نفسه، إذ يلزم من ذلك أنه كلَّفهم الإيمان بما لا يعرفون، فالأمر بتوحيده وعبادته فرع عن الإقرار به وبربوبيته فلابد أن يكون بعده.

وما أكثر الآيات التى تدل على أن المشركين كانوا يقرون بأن الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو الذي خلقهم ورزقهم ودبَّر أمورهم، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧].

إن المأمور إذا لم يعرف الآمر امتنع أن يعرف أنه أمره؛ لأن الأمر بتوحيده في عبادته فرع من الإقرار به، وبربوبيته، ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ **لأجابوه**: كيف ذلك ونحن لا نعرفه أصلًا؟ فأثبتوا ربكم أولًا، ثم مرُرونا بعبادته، أو لقالوا مثل ما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، إنكارًا له وجحدًا، وأمكن أن يكون قولهم متوجهًا.

وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، لكن أظهر خلاف ما في نفسه كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

ومثل فرعون أولئك المكذبون للرسل لما قالوا لرسلهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [ابراهيم:٩]، فأجابهم الله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [ابراهيم:١٠]، وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من يقر بهذا النفي. والمعنى: ما في الله شك وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك، ولكن تجحدون ذلك وتستحقون أن يُنكر عليكم جحودكم. فدل هذا على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين وأنهم جميعًا مفطورون على الإقرار به[1]، وأن الرسل لم يُبعثوا ليُعلموا الناس بوجود الرب الخالق، وإنما ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، لا شريك له.

وأكثر الناس غافلون عما فُطروا عليه من العلم، فيذكرهم الرسل بالعلم الذي فُطروا عليه[2]، ولذلك قال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٢١]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:٩-١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]، وهذه الأوصاف ذكر، ومُذكر - فذكِّر.. إلخ، تدل على معرفة سابقة بشيء معين، وهو ما فُطروا عليه من الإقرار في الميثاق القديم، والفطرة.

(١) انظر (درء التعارض) (٨/ ٤٤١،٤٤٠).

(٢) انظر: ص (٥٢-٥٥).

حتى إنهم لو غفلوا من هذه الفطرة في حال السراء، فلاشك أنها تستيقظ في حال الضراء[١].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس:٢٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٦٧].

لقد أرسل الله الرسل لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها، ولابد لهذه الفطرة من قُوتٍ وغذاء يمدها بنظير ما هو مغروس فيها وما قد فُطرت عليه علمًا وعملًا، ولهذا كان كمال الدين التام، بالفطرة المكلمة، بالشريعة المنزلة.

وقد قال تعالى في أول ما أنزل من كتابه الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق:١]، وقال أيضًا: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ذُكِرَ - أي**: الربُّ في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف، وأنه معروف عند المخاطبين؛ إذ الرب - تعالى - معروف عند العرب بدون الإستدلال بكونه خَلَقَ، وأن المخلوق - مع أنه دليل، وأنه يدل على الخالق - لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الإستدلال؛ ومعرفته فطرية، مغروزة في الفطرة، ضرورية، بديهية، أولية.أ.هـ.[٢].

---

(١) انظر: ص (٣٠-٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٤).

ج- ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ، تُنْتِجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَكُونُ فِيهَا جَدْعَاءُ؟**»، وفي رواية: «**تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**» [رواه أحمد].

وهذا الحديث يدل بوضوح على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقصد بالفطرة فيه معناها اللغوي، وإنما أراد معناها الشرعي المعهود في نصوص الوحيين.

حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[1]، ومعنى نحلته: أعطيته.

حُنَفَاء: جمع حنيف، قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: والحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام.

د- أنه يوجد في الجاهلية قبل البعثة المحمدية من أقر بتوحيد الله ورَفَضَ الشرك، ونَفَر منه، وهم طائفة (الحنفاء)، وهذا يدل على أن العبد قد يصيب الحق بخواطر تجول في نفسه، وأدلة قد انتظمت وترتبت بداخله على وجوب

(١) رواه مسلم [٢٨٦٥]، والإمام أحمد [١٧٤٨٤].

التمسك به دون أن تُلقى عليه حُجج وبينات من خارج ذاته، ويدل أيضًا على أن الفطرة قوة تقتضي: حبَّ الفاطر ووجوبَ عبادته وحده، وأن هذا يتم في النفس بغير سبب منفصل عنها، فوجوده فيها لا يتوقف على توفر شرط، ولكن على انتفاء مانع، وهذا بخلاف إحداث الكفر فهو متوقف على وجود شرط منفصل عن الفطرة على انتفاء مانع خارج عنها، مثل تربية وتنشئة الوالدين لطفلهما عليه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**».

[صحيح الجامع]

ولو لم يكن ذلك لاستحال أن يصل عبد إلى الخلق إلا بعد أن يسمعه مُدَلَّلًا عليه بالبينات والحجج من خارج نفسه، وهذا بخلاف الواقع.

[الشهادتان أول واجب على كل إنسان د. محمد إسماعيل]

ثانيًا- العقل

فمن المعلوم أن كل حادث لا بد له من مُحْدِث، وهذه المخلوقات الكثيرة والتي نشاهدها في كل وقت لا بد لها من خالقٍ أَوْجَدها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه يمتنع أن تكون مخلوقة من غير خالقٍ خَلقها، كما يمتنع أن تخلق نفسها؛ لأن الشيئ لا يخلق نفسه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥]، ومعنى الآية: أنهم لم يُخلقوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فيتعيَّن أن يكون خالقهم هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وإن انتظام هذا الكون بسمائه وأرضه ونجومه وأشجاره يدلُّ دلالة قطعية على أن لهذا الكون خالقًا موحَّدًا، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فهذه الكواكب والنجوم ـ مثلًا ـ تسير على نظام ثابت لا يختل، وكل كوكب يسير في مجال لا يتعداه ولا يتجاوزه، يقول تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

ولهذا لما سئل الأعرابي بما عرفت ربك؟ قال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على السميع البصير؟

ثالثًا ـ الشرع:

فكل الكتب السماوية نطقت بذلك، وإن ما جاءت به من الأحكام التي تتضمن مصالح الخلق لمن أكبر الأدلة على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه، وكذلك ما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها لهو من أكبر الأدلة على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به، ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ختام سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٨ - ١٩]، والتي صدَّرها بالكلام عن وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه هو الخالق وحده: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى:١ - ٥].

رابعًا ـ الحس:

فإننا نسمع ونشاهد من إجابة الله تعالى للداعين، وغوثه للمكروبين؛ ما يدل دلالة قاطعة على وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لِمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشرائط إجابة الدعاء، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الانفال:٩].

[شرح كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين]

***

قصة الرجل الذى أماته
الله تعالى مائة عام ثم أحياه

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

تقدم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ وهو فى قوله هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ اختلفوا فى هذا المار من هو فروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزيز، ورواه ابن جرير وحكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد هو أرميا بن حلقيا قال محمد بن إسحاق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه أنه قال: وهو اسم الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ وروى ابن أبى حاتم عن سلمان يقول إن رجلًا من أهل الشام يقول إن الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار وقال مجاهد بن جبر هو رجل من بنى إسرائيل وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر

عليها بعد تخريب بختصر لها وقتل أهلها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أى: ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خويًا.

وقوله: ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أى: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾: وذلك لما أرى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ قال: وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها فلما بعثه الله عَزَّوَجَلَّ بعد موته كان أول شيء أحيا الله فى عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويًا قال الله له أى بواسطة الملك: ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال: وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أى: كيف يحييه الله عَزَّوَجَلَّ وأنت تنظر، ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى: دليلًا على المعاد، ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أى: نرفعها فيركب بعضها على بعض وقد روى الحاكم فى مستدركه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه

أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾: بالزارى ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرىء ﴿نُنشِزُهَا﴾ أى: نحييها قاله مجاهد، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ وقال السدى وغيره تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحًا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركب كل عظم فى موضعة حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا وبعث الله ملكًا فنفخ فى منخرى الحمار فنهق بإذن الله عَزَّوَجَلَّ وذلك بمرأى من العزيز فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانًا فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون «قال اعلم» على أنه أمر له بالعلم.

[مختصر تفسير ابن كثير للشيخ هانى الحاج]

الدروس والعبر من القصة

١ - جواز طروء استبعاد ما يؤمن به العبد

أنه حق وكائن كما استبعد هذا المؤمن المار بالقرية حياة القرية مرة أخرى بعد ما شاهد من خرابها وخوائها [أيسر التفاسير للعلامة الجزائرى].

وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي: فوقف عليها ذلك الرجل مُتعجِّبًا، ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استبعادًا لذلك وجهلًا بقدرة الله تعالى فلما أراد الله به خيرًا أراه آية فى نفسه وفى حماره [تفسير السعدى].

٢- ولاية الله تعالى للعبد المؤمن التقى

تجلت فى إذهاب الظلمة التى ظهرت على قلب المؤمن باستبعاده قدرة الله على إحياء القرية، فأراه الله تعالى من مظاهر قدرته ما صرح به فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [أيسر التفاسير].

٣- عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ

أعلمنا الله تعالى أنه القادر القدير المقتدر، ففي تعريفنا باسمه القادر قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وأعلمنا أنه قدير في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢].

وأعلمنا أنه سبحانه المقتدر في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقوله: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ﴾ [القمر: ٥٥].

والأسماء الثلاثة: القادر، والقدير، والمقتدر من القدرة وهى القوة، فالقادر هو القوى، الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضيه الحكمة، لا زائدًا عليه، ولا ناقصًا عنه.

ومن قدرته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، والمصلح للخلائق على وجه لا يقدر عليه أحد غيره، فضلًا منه وإحسانًا، ومن تمام قدرته سبحانه

أن يوجد الخلاق من غير معالجة، فإذا أراد شيئًا إنما يقول له: كن فيكون: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فأمره سبحانه نافذ فى الأكوان، لا يمتنع عنه شيء، ولا ينازعه منازع، ولا مخالفه مخالف، ومن نظر فى قدرته الخالق والمخلوق علم أنه لا يقارن بينهما، فقدرة الخالق تتصف بالتمام والكمال، وقدرة المخلوق تتسم بالقصور والضآلة، وهى إلى زوال، حتى الملائكة الكرام أصحاب القوى الهائلة لا تأتى قدرتهم شيئًا بالنسبة لقدرة الواحد الديان.

وفى اسمه القدير يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فى (نونيته: ٢/ ٢١٨):**

وهـو القدير وليس يعجزه إذا ما رام شيئًا قـط ذو سلطان

والقدير من أسماء الله الثلاثة الدالة على صفة القدرة أبلغ من القادر، والمقتدر أبلغ من القدير.

وقد فصل لنا ربنا فى كتابه القول ليعرفنا بقدرته، حتى يستقر هذا فى قلوبنا، فتخضع له سبحانه القلوب، وتتوجه إليه الوجوه، فقد أعلمنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

ومن قدرته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ٤٠]، وهو سبحانه: ﴿ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ

مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

ومما يدل على قدرته، أنه على أن يأتى بنا ويجمعنا أينما كنا، وحيثما حللنا: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومما عرفنا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن عظيم قدرته أنه سبحانه يقبض أرضه بيده يوم القيامة ويطوى السموات بيمينه، قال سبحانه: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وضرب الله مثلًا فى كتابه لبيان ضعف الآلهة التى تعبد من دون الله وبيان بطلان ألوهيتها بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]. ثم عقب على ذلك قائلًا: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

وقال أحد الملوك وقد وقع الذباب على أنفه فآذاه لعبد صالح: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال العبد الصالح على البديهة: ليذل به الجبابرة.

وانظر إلى هذا الحشد الهائل الذى ساقه الله فى هذه الآيات مدللًا به على قدرته واقتداره ووحدانيته: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢-٥٥].

والله قدر الأشياء كما قال: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣]، ويتحقق ذلك بإعطائها القدرة على مقدار مخصوص ووجه مخصوص، كتقديره فى نواة الزيتون أن تنبت شجرة الزيتون، دون التين والعنب، وتقديره أن يوجد من الحيوان المنوى فى الإنسان إنسانًا لا حيوانًا، كما قال فى خلق الإنسان: ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٨-١٩].

والقدر: قدرة الله، وهو علمه فى الأزل بكل شيء سيوجده ويخلقه على النحو الذى يريد إيجاده، وكتابة ذلك فى اللوح المحفوظ، ثم خلقه الأشياء على النحو الذى أراده وكتبه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، وقال: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وعلى المؤمن بقدرة الله سبحانه أن لا يغتر بقدرته، وأن يلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما ينوبه، فقد علمنا ربنا ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلمنا رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإستخارة فى الأمور كلها، فبعد أن نصلى ركعتين من غير الفريضة، نتوجه إلى الله بقلوب مخبتة، متواضعة لجلالة الله وعظمته سبحانه، متخلين من الإعتماد على علمنا القاصر، وقدرتنا الناقصة الفانية، معلنين ذلك لله ربنا، طالبين منه أن يختار لنا خير الأمور فيما نحن مقبلون عليه، ومما ورد فى هذا الدعاء المأثور عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ» [صحيح البخارى] [شرح أسماء الله الحسنى للدكتور الأشقر].

٤ - قد يرى الملائكة غير الأنبياء

فقد رأى صاحب هذه القصة ملك من الملائكة وعند ذلك قال له: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقد رأى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جبريل فى صورة رجل شديد سواد الشعر كما فى حديث عمر بن الخطاب وهو حديث ما الإسلام ما الإيمان، ما الإحسان.

وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتى في صورة دحيي الكلبى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان من كرامات عمران حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الملائكة كانت تصافحة.

٥- ثبوت البعث والنشور.

٦- كيف يجمع الإنسان بعد موته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

[صحيح البخارى]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**كُلَّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُ التُّرَابُ إِلا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يَرْكَبُ**» [صحيح مسلم والنسائى].

يقال: عجم وعجب بالميم والباء: لغتان وهو جزء لطيف فى أصل الصلب. **وقيل:** هو رأس العصص [التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الأخرة].

٧- صفة البعث وآية ذلك فى الدنيا

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۤۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[الروم: ٤٨-٥٠]

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

عَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُحْيِي الله الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بوَادٍ لَكَ مَحْلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ مَحْلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: كَذَلِكَ يُحْيِي الله الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ» [رواه الإمام أحمد والحاكم فى المستدرك وابن كثير فى تفسيره وذكره العلامة الألبانى فى مشكاة المصابيح ولم يلق عليه].

٨- أول سورة ق تبين بعث الإنسان بعد موته

قال تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا

فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: ١-١١].

* * *

قصة طالوت وجالوت

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أَيْ: لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ فِيهِمْ; لِأَنَّ الْمُلْكَ فِيهِمْ كَانَ فِي سِبْطِ يَهُوذَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ السِّبْطِ فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أَيْ: كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أَيْ: ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ سَقَّاءً وَقِيلَ: دَبَّاغًا. وَهَذَا اعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَتَعَنُّتٌ وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ طَاعَةً وَقَوْلَ مَعْرُوفٍ ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ قَائِلًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيِ: اخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ. يَقُولُ: لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي بَلِ اللهُ أَمَرَنِي بِهِ لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أَيْ: وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ، وَأَنْبَلُ وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ وَمَعْرِفَةً بِهَا أَيْ: أَتَمُّ عِلْمًا وَقَامَةً مِنْكُمْ. وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ وَشَكْلٍ حَسَنٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ:

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ: هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ; وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ طَالُوتَ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ خَرَجَ فِي جُنُودِهِ وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ مَلَإِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ جَيْشُهُ يَوْمَئِذٍ فِيمَا ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ ثَمَانِينَ أَلْفًا فَالله أَعْلَمُ، أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: وَهُوَ نَهْرٌ بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ يَعْنِي: نَهْرُ الشَّرِيعَةِ الْمَشْهُورُ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَيْ: فَلَا يَصْحَبُنِي الْيَوْمَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ أَيْ: فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ قَالَ الله تَعَالَى ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنِ اغْتَرَفَ مِنْهُ بِيَدِهِ رَوِيَ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يُرْوَ. وَكَذَا رَوَاهُ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ شَوْذَبٍ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الْجَيْشُ ثَمَانِينَ أَلْفًا فَشَرِبَ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَتَبَقَّى مَعَهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ كَذَا قَالَ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ إِسْرَائِيلَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَمِسْعَرِ بْنِ كَدَامٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبِيعِيِّ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهْرَ، وَمَا جَازَهُ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَجَاءٍ عَنْ إِسْرَائِيلَ بْنِ يُونُسَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ: «كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهْرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثُمِائَةٍ».

ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَزُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بِنَحْوِهِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أَيِ: اسْتَقَلُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ فَشَجَّعَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ وَهُمُ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا عِدَدٍ. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

أَيْ: لَمَّا وَاجَهَ حِزْبُ الْإِيمَانِ وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ لِعَدُوِّهِمْ أَصْحَابِ جَالُوتَ وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيْ: أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أَيْ: فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ وَجَنِّبْنَا الْفِرَارَ وَالْعَجْزَ ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيْ: غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِنَصْرِ اللهِ لَهُمْ ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ ذَكَرُوا فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: أَنَّهُ قَتَلَهُ بِمِقْلَاعٍ كَانَ فِي يَدِهِ رَمَاهُ بِهِ فَأَصَابَهُ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ طَالُوتُ قَدْ وَعَدَهُ إِنْ قَتَلَ جَالُوتَ أَنْ يُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ وَيُشَاطِرَهُ نِعْمَتَهُ وَيُشْرِكَهُ فِي أَمْرِهِ فَوَفَى لَهُ ثُمَّ آلَ الْمُلْكُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا مَنَحَهُ اللهُ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيِ: النُّبُوَّةُ بَعْدَ شَمْوِيلَ ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أَيْ: مِمَّا يَشَاءُ اللهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أَيْ: لَوْلَاهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ

بِآخَرِينَ، كَمَا دَفَعَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُقَاتَلَةِ طَالُوتَ وَشَجَاعَةِ دَاوُدَ لَهَلَكُوا كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَنِي أَبُو حُمَيْدٍ الْحِمْصِيُّ أَحْمَدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ عَنْ وَبَرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلَاءَ». ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عُمَرَ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وَهَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ هَذَا هُوَ أَبُو زَكَرِيَّا الْعَطَّارُ الْحِمْصِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا.

وَقَالَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ أَيْضًا: عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَبْدَالُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ بِهِمْ تَقُومُ الْأَرْضُ، وَبِهِمْ تُمْطَرُونَ وَبِهِمْ تُنْصَرُونَ» قَالَ قَتَادَةُ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْحَسَنُ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: مَنٌّ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يَدْفَعُ عَنْهُمْ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

الدروس والعبر من القصة:

١- الجهاد الشرعى

يشترط له الإمام المبايع بيعة شرعية [أيسر التفاسير].

٢- يشترط للولاية الكفاءة

وأهم خصائصها العلم وسلامة العقل والبدن [أيسر التفاسير].

٣- جواز التبرك بآثار الأنبياء

كعمامة النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ثوبة أو نعله مثلا [أيسر التفاسير].

٤- جواز اختبار أفراد

الجيش لمعرفة مدى استعدادهم للقتال والصبر عليه.

٥- فضيلة الإيمان بلقاء الله

وفضيلة الصبر على طاعة الله خاصة فى معارك الجهاد فى سبيل الله.

٦- بيان الحكمة فى مشروعية الجهاد وهى دفع أهل الكفر والظلم بأهل الإيمان والعدل، لتنظيم الحياة ويعمر الكون [أيسر التفاسير].

٧- العلم يرفع صاحبه فى الدنيا والآخرة لمن عمل به

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**» [صحيح مسلم].

٨- طلب الجهاد قبل أمره سبب لحرمان الجهاد للعبد.

كما هو فى القصة عندما قالوا ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنو لقاء العدو ولكن إذا لقيتمه أسألوا الله العافية**»، لأن الذى لم يكن مهيء إيمانيا أول من يفر عن الجهاد.

٩- جهاد النفس قبل جهاد العدو

لأن العبد إذا لم يجاهد نفسه فكيف يجاهد العدو، وحديث أن النبى ﷺ عندما رجع من جهاد العدو قال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس فهو حديث ضعيف ضعفه العلماء كيف يكون جهاد النفس أكبر من جهاد العدو الذى تطير فيه الرقاب وتقطع فيه الأعضاء ويسفكى فيه الدماء وجهاد النفس يكون بأربعة أمور كما **قال الإمام ابن القيم:**

أولا- بتعلم العلم الشرعي.

ثانيًا- العمل بالعلم الذى تعلمه.

ثالثًا- أن يدعو الناس بهذا العلم.

رابعًا- الصبر على الأذى فى تبليغ هذا العلم.

ثم قال من أتصف بهذه الصفات يُدعى فى ملكوت السموات عظيمًا.

١٠- لابد من التربية الإيمانية

تعلمنا من هذه القصة الرائعة أن لابد من التربية الإيمانية قبل الجهاد كما فعل النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه.

١١- كيف ربى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة؟

فإنهم تربوا على يدي أعظم مربٍّ ومعلم، وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا كان كل تلميذ يتعلم من أستاذه، فكيف بمن كان معلمه هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد رباهم على توحيد الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

ثم رباهم بعد ذلك على حب الجنة والشوق إليها، وبغض النار وما يقرب إليها، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أول ما نزل من القرآن سورة فيها ذكر الجنة والنار ـ تعني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سورة المدثر، وهي السورة الثانية من حيث ترتيب نزولها، وفيها يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٤٧]، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال

والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب، ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده.

ويقول الشيخ أحمد فريد: فلا شك في أن النبي ﷺ في مكة كان أكبر همه تربية الصحابة رضي الله عنهم، ومن أجل الاهتمام بالتربية أمروا بكف الأيدي، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء:٧٧]، ومن أجل الاهتمام بالتربية أيضًا نهوا عن رد الاعتداء، وأمروا بالعفو والصفح، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية:١٤]؛ حتى لا يشغلوا بالمعارك الجانبية عن التفرغ للتربية، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عشنا برهة من الدهر، وكان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن.

[انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة للدكتور أحمد فريد]

ثم رباهم بعد ذلك على الصبر وتحمل الأذى، والعفو، كما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقال خباب بن الأرت: أتينا رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر؟ لنا ألا تدعو لنا؟ فجلس محمرًا وجهه، فقال: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ**

يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

ثم رباهم على مدرسة قيام الليل، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن الله عَزَّ وَجَلَّ افترض قيام الليل في أول هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:١-٤]؛ فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حولًا، وأمسك الله خاتمتها، اثنا عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف؛ فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضته [صحيح مسلم].

وعن عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]، قاموا حولًا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، حتى نزلت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠]، وكذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم رباهم بعد ذلك على الجهاد والتضحية والفداء وحب الشهادة، وأن تكون كلمة الله هي العليا، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]؛ فأقام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دولة في عشر سنوات، فلم يسبق لأمة من الأمم أنهم فعلوا مثل ذلك، وفتحوا

العالم، ونشروا الإسلام في الأرض، فإذا أرادت الأمة أن تعود إلى مجدها، وعزها، فلابد أن ترجع إلى ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب، وعادات، ونعيش بتكنولوجيا العصر بأن نكون الأول في الاقتصاد، والتقدم، والرقي، والاختراعات، ولكن بديننا كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لن يصلح هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**» [رواه البخاري].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من كان منكم مستنًا؛ فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

١٢ – من لم يحدث نفسه بالجهاد مات على سعبته من النفاق أو مات ميتة جاهلية.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من لم يحدث نفسه بالجهاد مات على شعبة من النفاق**».

وفي رواية: «**مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» [صحيح الجامع].

***

قصة أصحاب السبت

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ أى: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى إيلة وهى على شاطىء بحر القلزم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فى قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾: قال هى قرية يقال لها إيلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى وقال عبد الله بن كثير القارىء سمعنا أنها ايلة وقيل هى مدين وهو رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقال ابن يزيد هى قرية يقال لها منتنا بين مدين وعينونا.

وقوله: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أى: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك، ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾: قال الضحاك عن ابن عباس أى ظاهرة على الماء وقال العوفى عن ابن عباس شرعًا

من كل مكان قال ابن جرير وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أى: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيدة وإخفائها عنهم فى اليوم الحلال لهم صيدة ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قوم اختالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بِأَدْنَى الْحِيَلِ**» [صحيح الجامع].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٦].

يخبر تعالى عن أهل القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه فى سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى

نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب أى نفعل ذلك ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أى: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾: يقولون ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أى: ارتكبوا المعصية، ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾: فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من حنس العمل فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾، هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقال لها إيلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يم سبتهم شرعًا فى ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزداد إلا غيا وعتوًا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت

طائفة من النهاة تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهخم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعظون قومًا الله مهلكهم والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة، وروى العوفى عن ابن عباس عنه قريبًا من هذا. وعن عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال ما أدرى أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قالفلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكسانى حلة، وروى عبد الرازق عن عكرمة قال جئت ابن عباس يومًا وهو يبكى وإذا المصحف فى حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلنى الله فداك؟ قال: فقال هؤلاء الورقات قال وإذا هو فى سورة الأعراف قال تعرف إيلة؟ قلت نعم قال فإنه كان بها حى من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاضب لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعًا بيضاء سمانًا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم فكانوا كذلك برهةمن الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها فى غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة

بأنفسها وأبنائها ونسائها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الأيمنون ويلكم الله، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فعلتم يا أعداء الله والله لا نبايتكم الليلة فى مدينتكم والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلمًا وأعلوا سور المدينة رجلًافالتفت إليهم فقال أى عباد الله قردة والله تعادى تعادى لها أذناب قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى فيقول ألم ننهكم عن كذا فتقول برأسها أى نعن ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، قال فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال قلت جعلنى الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين، وكذا روى مجاهد عنه.

وروى ابن جرير عن ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، قال كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطًا ووتدًا فربط حوتًا منها فى الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألواه عن ذلك فجحدهم فلم يزالوا به حتى قال لهم فإنه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدرى لعلة قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا راءحة فجاءوا فسألوه فقال لهم لو شئيم صنعتم كما أصنع فقالوا له وما صنعت؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فإذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به، وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة.

القول الثانى – أن الساكتين كانوا من الهالكين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان

يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعًا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلًا منهم أخذ حوتًا فخزم أنفه ثم ضرب له وتدًا فى الساحل وربطه وتركه فى المواء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك فى الأسواق ففعل علانية قال فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فقالوا نسخط أعمالهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ قالابن عباس كانوا أثلاثًا ثلث نهوا وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وثلث أصحاب الخطئية فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم، وهو بإسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة فى نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وبئيس فيه قرآت كثيرة ومعناه فى قول مجاهد الشديد، وفى رواية أليم وقال قتادة موجع والكل متقارب والله أعلم، وقوله: ﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾: أى ذليلين حقرين مهانين.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

﴿ تَأَذَّنَ ﴾: تفعل من الأذان أى أعلم قاله مجاهد وقال غيره أمره، وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبعت باللام فى قوله: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: على اليهود، ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم، ويقال إن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ضرب عليهم الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية.

قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: قال هى المسكنة وأخذ الجزية منهم، وقال على ابن أبى طلحة عنه هى الجزية والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته إلى يوم القيامة، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريح والسدى وقتادة، وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: أى لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

الدروس والعبر من هذه القصة:

١-تقرير الوحى والنبوة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ مثل هذا القصص الذى يذكر لبنى إسرائيل لن يتم إلا عن طريق الوحى وإلا فكيف علمه وذكر به اليهود أصحابه وأهله، وقد مضى عليه زمن طويل [أيسر التفاسير].

٢- إذا أنعم الله على أمة نعمة ثم أعرضت عن شكرها تعرضت للبلاء أولًا ثم العذاب ثانيًا [أيسر التفاسير].

٣- إطلاق لفظ السوء على المعصية

مؤذن بأن المعصية مهما كانت صغيرة تحدث السوء فى نفس فاعلها.

[أيسر التفاسير]

٤- تحريم الحيِّل التى تواصل إلى أرتكاب محرم أم ترك واجب.

٥- الإحتيال على الشرع يؤدى إلى هلاك الفرد والمجتمع.

٦- ظهور الحيلة فى الإسلام.

مثل قول البعض عن الربا فوائد، وزواج المحلل والزواج العرفى وغيرها من المحرمات.

٧- يكون مسخ وخسف فى أمة الإسلام

قَالَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ». قِيلَ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَتِ القِيان وَالْمَعَازِفُ، واستُحلت الْخُمُورُ» [رواه الترمذى].

٨- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سبب نجاة العبد فى الدنيا والآخرة.

كما فى القصة أن الله عَزَّوَجَلَّ أنجى الذين ينهون عن السوء.

٩- الخطأ أن تقول عن اليهود أحفاد القردة والخنازير والصحيح أن تقول أخوة القردة والخنازير لأن هذه الأمة بعد المسخ ماتة كلها وليس لها أحفاد.

١٠-تعريف المعروف والمنكر:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: المعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه ويسخطه.

فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

٢- تكون حقًّا من أهل الآخرة:

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال قتادة: «هم خير أمة إذا قاموا بهذا الشرط، فمن لم يقم بهذا الشرط فليس من خير أمة».

وتأمل أن الله تعالى قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان بالله تعالى، وذلك لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الإمام ابن كثير: «فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]».

٣- سبب الرحمة:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٧١].

٤- هم الذين اشتراهم الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١١-١١٢].

٦- النجاة من العقاب:

قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ**» [صحيح الترمذي].

وقال ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**» [صحيح أبي داود].

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**».

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

٧- له أجر من تبعه:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» [صحيح مسلم].

٨- سبب التمكين في الأرض:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج:٤٠].

٩- سبب النجاة في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥].

١٠- من صفات المؤمنين:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِهَا ثُمَّ يَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ

جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» [صحيح مسلم].

١١- ليس أحد أفضل منك:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

١٢- من الصدقات:

قال رسول الله ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ لَكَ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ» [حسن الترمذي].

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فإن قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، ومعنى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: ولتكن منكم طائفة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

ولكن هناك أمور يجب فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» [صحيح مسلم]؛ وذلك مثل:

ترك الصلاة، والزنا، وشرب الخمر، والتبرج، وشرب الدخان، وغيرها من المحرمات، فإذا عملت بفرض من الفرائض فيجب عليك أن تأمر به، وإذا علمت محرمًا من المحرمات، فيجب عليك أن تنهى عنه، وذلك من غير مفسدة، ولكن إذا لم تغير المنكر بيدك أو بلسانك فلم يبق لك إلا أن تغيره بقلبك، ولكن يجب عليك أن تترك المكان الذي يفعل فيه المنكر، كأن تكون بين قوم يشربون المخدرات أو يشاهدون أفلامًا، ويستمعون إلى الأغاني، فإذا جلست معهم فأنت تشاركهم في الإثم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٤٠].

ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الضابط الأول- أن يكون الإنسان عالمًا بالمعروف والمنكر، فإن لم يكن عالمًا بالمعروف فإنه لا يجوز أن يأمر به لأنه قد يأمر بأمر يظنه معروفًا وهو منكر ولا يدري، فلابد أن يكون عالمًا أن هذا من المعروف الذي شرعه الله ورسوله، ولابد أن يكون عالمًا بالمنكر، فإن لم يكن عالمًا بذلك فلا ينهى عنه، لأنه قد ينهى عن شيئ هو معروف، فيترك المعروف بسببه أو ينهى عن شيئ وهو مباح فيضيق على عباد الله بمنعهم مما أباح الله لهم.

الضابط الثاني- أن تعلم بأن هذا الرجل تارك للمعروف، أو فاعل للمنكر، ولا تأخذ الناس بالتهمة أو بالظن، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

الضابط الثالث- ألا يزول المنكر إلى ما هو أعظم منه، فإن كان هذا المنكر لو نهينا عنه زال إلى ما هو أعظم منه فإنه لا يجوز أن ننهى عنه، مثال: لو أن رجلًا يشرب الدخان أمامك فأردت أن تنهاه وتقيمه من المجلس ولكنك تعرف أنك لو فعلت لذهب يجلس مع السكارى، ومعلوم أن شرب الخمر أعظم من شرب الدخان، فهنا لا تنهاه، ويُذكرُ أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مر بقوم في الشام من التتار ووجدهم يشربون الخمر، وكان معه صاحب له، فمر بهم شيخ الإسلام ولم ينههم، فقال له صاحبه: لماذا لم تنههم؟ قال: لو نهيناهم لذهبوا يهتكون أعراض المسلمين وينهبون أموالهم، وهذا أعظم من شرب الخمر، فتركهم مخافة أن يفعلوا ما هو أنكر وأعظم، وهذا من فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨] [انظر: شرح رياض الصالحين، للشيخ ابن عثيمين].

آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- الإخلاص لله في النصح:

وحرصك على هذا الأمر الذي تأمره، وخوفك عليه من عقاب الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدين النصيحة**»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [صحيح مسلم].

٢- أن تعمل بما تقول:

فقد ذمَّ الله تعالى أقوامًا خالفت أقوالهم أفعالهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣].

ولكن قال العلماء يجب على العبد أن يأمر بالمعروف ولو كان لا يفعله، وينهى عن المنكر ولو كان يفعله، لأنه ترك المعروف إن كان واجبًا ذنب، وفعل المنكر ذنب، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذنب آخر، لأنه يجب عليه الأمر والنهي، وحتى لا يعم الفساد، وحتى لا يستحل الناس الحرمات.

أقوال السلف في عدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل أن تعمل به:

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تقدم بعض التابعين ليصلي بالناس إمامًا فالتفت إلى المأمومين يعدل الصفوف وقال: استووا، فغشي عليه، فسئل عن

سبب ذلك، فقال: لَمَّا قلتُ لهم استقيموا، فكرتُ في نفسي فقلت لها: فأنتِ هل استقمتِ مع الله طرفة عين؟

ما كل من وصف الدواء يستعمله ولا كل من وصف التقى ذو تقى

وصفت التقى حتى كأني ذو تقى وريـح الخطايا من ثيابي تعبق

ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد، لأنه لا عصمة لأحد بعده:

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب فمن يعـظ العاصين بعد محمد

وقيل للحسن: إن فلانًا لا يعظ، و يقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل! فقال الحسن: وأيُّنَا يفعل ما يقول؟ وَدَّ الشيطانُ أنه ظَفِرَ بهذا فلم يأمر أحدٌ بمعروفٍ و لم يَنْهَ عن منكر.

و قال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيءٌ، ما أمرَ أحدٌ بمعروف و لا نهى عن منكر، قال مالك: وصدق؛ ومن ذا الذي ليس فيه شيء:

مـن ذا الذي مـا سـاء قط و مـن له الحسـنى فقط

و كان بعض العلماء المشهورين له مجلس للوعظ فجلس يومًا فنظر إلى من حوله، وهم خلق كثير وما منهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينه،

فقال لنفسه فيما بينه وبينها: كيف بك إن نجا هؤلاء و هلكتَ أنت؟ ثم قال في نفسه: اللهم إن قضيت علي غدًا بالعذاب فلا تعلم هؤلاء بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي؛ لئلا يُقال: عذب من كان في الدنيا يدل عليه. إلهي قد قيل لنبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقتل ابن أبي المنافق فقال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»، فامتنع من عقابه لما كان في الظاهر ينسب إليه، وأنا على كل حال فإليك أنسب. إلهي فأنت أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين فلا تخيب من علَّق أملَه ورجاءَه بك، وانتسب إليك، ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلا على كرمك، ولم يكن أهلا للسمسرة بينك وبين عبادك لكنه طمع في سعة جودك وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رد من تطفل على سماط كرمه.

إن كنتُ لا أصلح للقرب ... فشأنكم صفح عن الذنب

وكما قيل:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو سقيم

يا أيها الرجل المقوم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التقويم

ابدأ بنفسك فأنهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول و يقتدى ... بالقول منك و ينفع التعليم

لا تنه عن خلق و تأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

[من لطائف المعارف بتصرف]

٣- الرفق واللين:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما كان الرفق في شيئ إلا زانه، وما يُنزع من شيئ إلا شانه**» [صحيح مسلم].

فإياك أن تُنفِّر الناس عن دين الله، أو تصد عن سبيل الله بأسلوبك، وقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وإنَّ منكم لمنفِّرين**»، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فتأمر بالمعروف بمعروف، وتنهى عن المنكر من غير منكر، حتى يمثل المأمور والمنهي.

***

قصة الذى آتاه
الله آياته فانسلخ منها

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٤-١٧٧].

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾، الآية قال هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو صيفى بن الراهب قال قتادة وقال كعب: كان رجلًا من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيمًا ببيت المقدس مع الجبارين وقال العوفى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها، وقال مالك بن دينار كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو بلعم بن باعوراء وكذا قال مجاهد وعكرمة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بلعام وقالت ثقيف هو أمية بن أبى الصلت وعن عبد الله بن عمرو فى قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ الآية، قال هو صاحبكم أمية بن أبى الصلت وقد روى من غير وجه عنه وهو صحيح إليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله. وقد جاء فى بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعارًا ربانية وحكمًا وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمن بنى إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه وأغرب بل أخطأ من قال قد أوتى النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعنى بالجبارين ومن معه أتاه ـ يعنى بلعن ـ بنو عمه وقومه فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياى وآخرتى، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية، وقال السدى لما انقضت الأربعون السنة التى قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبيًا فدعا بنى إسرائيل فأخبرهم أنه نبى وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعام فكان عالمًا يعلم الاسم الأعظم الكتوم فكفر ـ لعنه الله ـ وأتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بنى إسرائيل فإنى إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتى النساء لعظمهن فكان ينكح أتانًا له وهو الذى قال تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: أى استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أى: من الهالكين الحائرين البائرين.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ ﴾ أى: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها، ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من أولى البصائر والنهى، وقال أبو الراهوية فى قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد.

وقال محمد بن إسحق بن سيار سالم أبى النضر أنه حدث أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فأخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبى الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ قالوا له ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حماره له متوجهًا إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل وهو حسبان فلما سار عليها غير كثير ربصت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا

بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه أتدرى يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك، هذا شىء قد غلب الله عليه، قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال: جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبتى ابنة صور ورأس أمته ـ برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فلما رآها أعجبته فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال إنى أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها قال أجل هى حرام عليك قال فوالله لا أطيعك فى هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عَزَّوَجَلَّ الطاعون فى بنى إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يحوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت

من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعة واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفًا والمقلل لهم يقول عشرون ألفًا فى ساعة من النهار فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع والحى والبكر من كل أموالهم وأنفسهم لأنه كان بكر أبيه العيزار، ففى بلعام بن باعور أنزل الله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اختلف المفسرون فى معناه فعلى سياق أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب فى لهيثه فى كلتى حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر، وقيل معناه فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب فى لهيثه فى حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث

فى الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالمواعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ١٠]، ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك وقيل معناه أن قلب الكافر والنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ ﴾ أى: لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب فى غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن. وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولهذا قال ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى: فيحذروا أن يكونوا مثله فإن الله قد أعطاهم علمًا وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلًا فى الدنيا موصولًا بذل الآخرة.

وقوله: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أى: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لاهم إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهًا بالكلب وبئس المثل مثله وهذا ثبت فى الصحيح أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السُّوءِ: الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ، كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**» [صحيح البخارى]، وقوله: ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾: أى ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

الدروس والعبر من القصة:

١ - علم بدون خشية وعمل لاينفع صاحبه

فى الدنيا والآخرة فقد قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ**».

[رواه الترمذى]

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» [صحيح مسلم].

وهذه القصة لم ينتفع بلعم بهذا العلم الذى آتاه الله لأنه لم يعمل به ويتبع به رسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢- أصحاب السوء سبب فى هلك العبد وإن كان صالحًا إذا استجاب لهم.

كما فى هذه القصة وقد قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ**» **وَقَالَ مُؤَمَّلٌ**: «**مَنْ يُخَالِلُ**» [صحيح البخارى].

قَالَ رَسُولُ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**» [صحيح البخارى].

٣- الذى ضل عن الطريق المستقيم.

مثله كمثل الكلب.

٤- العمل بالعلم يرفع صاحبه فى الدنيا والأخرة

فقد قال فى هذه القصة عن بلعم: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾، بمفهوم المخالفة أن من عمل بالعلم وابتغى به وجه الله تعالى والدار الأخرة رفع الله قدره وشأنه فى الدنيا والأخرة.

٥- الخلود إلى الدنيا يبعد العبد عن الله والدار الأخرة لأنه يسعى إلى الشهوات وحب الدنيا وهما أكثر شىء يبعد العبد عن ربه وعن طاعته واستجابة أمره.

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ» [صحيح مسلم].

٦- فتنة النساء من أعظم الفتن

على العبد والمجتمع كما هو فى القصة وقد قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» [صحيح البخارى]. وأول فتنة كانت فى بنى إسرائيل كانت فى النساء.

٧- تذكير الناس بما وقع لمن قبلهم لعلهم يتعظون

كما قال الله تعالى لرَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى القصة: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٨- عدم الغرور بالعلم والعمل.

٩- العبرة بالخواتيم.

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» [صحيح مسلم].

ولكن فى رواية تعالى: «فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» [رواه الإمام أحمد].

لأن الله تعالى أكرم من أن يخزى عبادًا أخلص له وصدقه معه ولكن الذى كان يعمل بعمل أهل الجنة وختم له بعمل أهل النار لأنه لم يخلص فى العمل لله أو أتى بسبب من أسباب حبوط العمل فى قلبه مثل الكبر أو العجب أو الرياء الذى يعلمه الله تعالى فجزاه الله تعالى بعدله.

وقد قال الإمام ابن كثير: «أجرى الكريم عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شىء بعث عليه».

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**» [رواه ابن حبان].

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ الله عَلَيْهِ**».

[مسند الإمام أحمد]

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**»، **قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**».

[مسند الجامع الصحيح]

فمن عاش عل الطاعة وأخلص لله لابد أن يموت على الطاعة وأقرأ كيف مات الصالحين ومن عاش على المعصية إن لم تتدركه رحمة الله بتوبة قبل الموت مات على المعصية عياذنا بالله من ذلك.

١٠ - خطر شأن هذا الخبر الذى أمر الله تعالى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن يتلوه على الناس** [أيسر التفاسير].

١١ - الهداية بيد الله ألا فليطلبها

من أرداها من الله بصدق القلب وإخلاص النية فإن الله تعالى لا يحرمه منها، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه [أيسر التفاسير].

١٢ - الاسم الأعظم كما عرفه لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلاً يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يكن له كفواً أحد، فقال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لقد سأل الله بالاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب**» [صحيح الترغيب والترهيب].

وعن أنس بن مالك قال: أنه كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَدْ سَأَلَ الله بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**» [صحيح أبو داود].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْمُ الله الْأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه**» [صحيح الجامع].

قال القاسم: فالتمستها فإذا هي «**الحي القيوم**»، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي آل عمران ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران:٢]، وفي طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [طه:١١١].

* * *

قصة أصحاب الكهف

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف:٩-١٢].

هذا إخبار من الله تعالىٰ عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ثم بسطها بعد ذلك فقال ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعنى يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أى: ليس أمرهم عجيبًا في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالىٰ وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجز شئ أعجب من أخبار أصحاب الكهف كما قال مجاهد: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم فقال العوفى عن ابن عباس هو واد قريب من آيلة. وقال الضحاك أما الكهف فهو غار

الوادي والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد الرقيم كان بنيانهم ويقول بعضهم هو الوادي الذي فيه كهفهم. وعن ابن عباس: الرقيم الكتاب، وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب ثم قرأ كتاب مرقوم، وهذا الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير، قال الرقيم فعيل بمعنى مرقوم كما يقال للمقتول قتيل وللمجروح جريح والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ يخبر الله تعالىٰ عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالىٰ رحمته ولطفه بهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى وقدر لنا من أمرنا هذا رشدًا أى: اجعل عاقبتنا رشدًا كما جاء في الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا»، وفى المسند من الحديث بسر ابن أرطأة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «**اللّٰهُمَّ أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**» وقوله ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا

سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾، أي من رقدتهم تلك وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ولهذا قال ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾، أي المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ قيل عددًا، وقيل غاية فإن الأمد الغاية.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف:١٣-١٦].

من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحه فذكر تعالىٰ أنهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله تعالىٰ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبابًا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالىٰ عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا، وقال مجاهد بلغني أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى الحلق فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم أى اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية، وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره

ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كما قال ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:-١٧]، وقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤]، وقال ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشًا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر ذى القرنين وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه مقدم على دين النصرانية والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول تعالىٰ وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه

فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم، والذبح لها لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية فكان أول من جلس إليها عنده وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان كما جاء في الحديث الذى رواه البخارى تعليقًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»(١) وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس يقولون الجنسية علة الضم. والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفًا منهم ولا يدرى أنهم مثله حتى قال أحدهم تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شىء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر أما أنا فإنى والله رأيت ما قومى عليه فعرفت أنه باطل وإنما الذى يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئًا هو الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر وأنا والله وقع لى كذلك، وقال الآخر كذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يدًا واحدة وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (البر والصلة/ ٢٦٣٨/ عبد الباقي)، وعلقه البخاري في «أحاديث الأنبياء».

فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولهذا أخبر تعالىٰ بقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ ولن لنفى التأبيد أى لا يقع منا هذا أبدًا لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ولهذا قال عنهم ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أى باطلاً وكذبًا وبهتانًا ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحًا صحيحًا ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ يقولون بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبىَ عليهم وتهددهم وتوعدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه كما جاء فى الحديث: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ أحدكم غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**»[1]، ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع فلم وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم واختار الله تعالىٰ لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك فى قوله: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ

(١) صحيح: أخرجه البخارى في (الإيمان/ ١٩/ فتح).

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أى إذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أى يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُمۡ﴾ الذى أنتم فيه ﴿مِّرۡفَقٗا﴾ أى أمرًا ترتفقون به فعند ذلك خرجوا هربًا إلى الكهف فاووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك فيقال إنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الصّديق حين لجأ إلى غار ثور وجاء المشركون من قريش فى الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه وعندها قال النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رأى جزع الصدّيق فى قوله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»[1]. وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠]. فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف، وقد قيل إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذى دخلوه فقالوا ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم فأمر

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (المناقب/ ٣٦٥٣/ فتح)، ومسلم في (فضائل الصحابة/ ٢٣٨١/ عبد الباقي).

الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك، وفي هذا نظر والله أعلم.

فإن الله تعالىٰ قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشيًا كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال لأنه تعالىٰ أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أى يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أى تميل وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق تقلص شعاعها بإرتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال فى مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أى تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالاً ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه ولله الحمد، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تتركهم، وقد أخبر الله تعالىٰ بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد

من الأرض إذ لا فائدة لنا فيه ولا مقصد شرعى، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً فتقدم عن ابن عباس أنه قال هو قريب من أيلة، وقال ابن إسحاق هو عند نينوى وقيل ببلاد الروم وقيل ببلاد البلقاء والله أعلم بأى بلاد الله هو؛ ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالىٰ ورسوله إليه فقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ أعلمتكم به**». فاعلمنا بصفته ولم يعلمن بمكانه فقال ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قال زيد بن أسلم تميل ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: فى متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذى جمعهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الآية أى هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ومن أضله فلا هادى له.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، ولهذا قال

تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد كما قال الشاعر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ قال بعض السلف يقلبون فى العام مرتين قال ابن عباس لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة الوصيد الفناء، وقال ابن عباس بالباب وقيل بالصعيد وهو التراب والصحيح أنه بالفناء وهو الباب ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة:٨]، أى مطبقة مغلقة ويقال وصيد وأصيد ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج يحرس عليهم الباب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب كما ورد في الصحيح[1] ولا صورة ولا جنب ولا كافر كما ورد فى الحديث الحسن[2] وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل إنه كلب صيد لأحدهم وهو الأشبه وقيل كلب طباخ الملك وقد كان وافقهم على الدين فالله أعلم. واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى (بدء الخلق/ ٣٢٢٥/ فتح)، ومسلم فى (اللباس/ ٢١٠٦/ عبد الباقى).

(٢) ضعيف: وانظر «ضعيف الجامع» (٦٢٠٣).

لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها بل هى مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أى أنه تعالىٰ ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاء تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيهم لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

[الكهف:١٩-٢٠]

يقول تعالىٰ كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأظفارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئًا وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أى كم رقدتم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار واستيقاظهم كان فى آخر نهار ولهذا استدركوا فقالوا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أى: الله أعلم بأمركم

وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم فالله أعلم ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أى فضتكم هذه وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها فتصدقوا منها وبقى منها فلهذا قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها والألف واللام للعهد ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أى: أطيب طعامًا كقوله﴿تَّزَٰوَرُ﴾ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]، وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تطيب المال وتطهره وقيل أكثر طعامًا ومنه زكاة الزرع إذا كثر **قال الشاعر**:

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة والسبع أزكى من ثلاث وأطيب

والصحيح الأول لأن مقصدهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيرًا أو قليلاً، وقوله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أى فى خروجه وذهابه وشرائه وإيابه يقولون ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أى: ولا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أى إن علموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا وإن وافقتموهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [البقرة:٢١].

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة، **وقال عكرمة:** كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة فى شراء شىء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة وذكروا أن اسمها افسوس وهو يظن أنه قريب العهد بها وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها كما **قال الشاعر:**

أمـــا الديـــار فـإنـهـا كـديـارهـم وأرى رجـــال الـــحى غـير رجـاله

فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التى يعرفها ولا يعرف أحدًا من أهلها لا خواصها ولا عوامها فجعل يتحير فى نفسه ويقول لعل بى جنونًا أو مسًا أو أنا حالم ويقول: والله ما بى شىء من ذلك وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من هاهنا لأولى لى، ثم

عمد إلى رجل ممن يبيع الطاعم فدفع إليه ما معه من النفقة وساله أن يبيعه بها طعامًا فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون لعل هذا وجد كنزًا فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز وممن أنت؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون فحملوه إلى ولى أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره وهو متحير فى حاله وما هو فيه فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلمًا فيما قبل واسمه تندوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام ثم دعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عَزَّوَجَلَّ فالله أعلم. قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بكهف فى بلاد الروم فرأوا فيه عظامًا فقال قائل هذه عظام أهل الكهف فقال ابن عباس لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلثمائة سنة رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أى فى أمر القيامة فمن مثبت لها ومن منكر فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أى سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين (أحدهما) إنهم المسلمون منهم (والثانى) أهل الشرك منهم فالله أعلم، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبى ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»(١) يحذر ما فعلوا وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك القرعة التى وجدها عنده فيها شىء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢].

يقول تعالىٰ مخبرًا عن اختلاف الناس فى عدد أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال فدل على أنه لا قائل برابع ولما ضعف القولين بقوله ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أى قول بلا علم كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب

(١) صحيح: انظر الأحاديث الواردة فى ذلك فى «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد».

فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته وأنه هو الواقع فى نفس الأمر وقوله ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالىٰ إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم لكن إذا اطلعنا على أمر قبلنا به وإلا وقفنا.

وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى: من الناس. قال ابن عباس أنا من القليل الذى استثنى الله عَزَّوَجَلَّ كانوا سبعة وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراسانى عنه أنه كان يقول أنا ممن استثنى الله عَزَّوَجَلَّ ويقول عدتهم سبعة. وروى ابن جرير عن عكرمة عن ابن عباس ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال أنا من القليل كانوا سبعة فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة وهو موافق لما قدمناه.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٥-٢٦].

هذا خبر من الله تعالىٰ لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمقدار ما لبث من أصحاب الكهف فى كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهى ثلثمائة سنة بالشمسية فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين فلهذا قال بعد الثلثمائة وازدادوا تسعًا، وقوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أى: إذا

سئلت عن لبثهم وليس عندك علم فى ذلك وتوفيق من الله تعالىٰ فلا تتقدم فيه بشىء بل قل فى مثل هذا ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه عليه من خلقه وهذا الذى قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف وقوله ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أى إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير وذلك فى معنى المبالغة فى المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شىء. ثم روى عن قتادة فى قوله ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ فلا أبصر من الله ولا أسمع، وقال ابن زيد ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا. وقوله ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أى أنه تعالىٰ هو الذى له الخلق والأمر الذى لا معقب لحكمه وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالىٰ وتقدس [مختصر تفسير ابن كثير لهانى الحاج].

الدروس والعبر من القصة:

١ - أن الإيمان والعمل الصالح سبب لزيادة الهدى

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، والمعصية سبب زيادة المعاصى والذنوب كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

٢- ثبات القلوب بيد علام الغيوب

كما قال تعالى فى هذه القصة: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف: ١٤].

وقال تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ فى أشد المواقف وهو القتال فى سبيل الله، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الانفال: ١١]، ولذلك كان أكثر دعاء النبى ﷺ أن يثبت قلبه على دينه، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».

[رواه الترمذى]

٤- اعتزال الناس فى الفتنة من أعظم أسباب النجاة

كما قال الله تعالى فى هذه القصة: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦]، فإن القلوب ضعيفة والفتن خطافة، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ» [صحيح البخارى].

٥- ثبوت كرمات الأولياء

كما فى هذه القصة فقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ لهؤلاء الشباب كرمات منها نومهم أكثر من ثلاثمائة سنة، وحفظهم فى الكهف من الحيوانات المفترسة ومن الحشرات المؤذية وتقلبهم حتى لا يفسد جسدهم عن اليمين والشمال وجعل الشمس تزور كهفهم وجعل الله عليهم المهابة بحيث لا يقرب منهم أحد.

فالكرمات تكون لعباد الله الصالحين المؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وكل مؤمن تقى فهو لله ولى كما قال العلماء.

٦- فضل مصاحبة الصالحين

فهذا الكلب الذى ليس له قيمة فالذى رفع ذكره هو مصاحته للصالحين.

٧- أهمية تربية الشباب

إذا أرادت أمة من الأمم أن تسود وتعلُو مكانتها فعليها أن تقوم بتربية جيل على ما هي تريد حتى تصل إلى ما تريد؛ لأن عصب الأمة هم الشباب، فالذي نصر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هم الشباب، والذي عاداه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هم الشيوخ؛ لأن الشباب أقرب للفطرة، وهي الإسلام الذي خُلقوا عليه، ولم تهلكهم العقائد الباطلة، ولا العبادات الفاسدة، قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ

ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مولد إلا يولدُ على الفطرة، فابواهُ يهَوِّدانه أو ينصرانِه أو يمجِّسَانه**» [صحيح الجامع].

فكل طفل ولد على الفطرة التي هي الإسلام، فالوالد يشكل الولد كما تشكل العجينة في يدك، وقد قيل: «التعليم في الصغر كالنقش على الحجر»؛ لأن الطفل قلبه أبيض ليس فيه شيئ، فكل شيئ يدخله يحفُرُ فيه؛ إن خيرًا فخيرٍ، وإن شرًّا فشرٍّ.

وتأمل عندما أراد الله أن يهلك فرعون وهامان وجنودهما، وأن يمكن للمستضعفين من بني إسرائيل، صنع لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على عينه، فقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه:٣٧-٤١].

أيها الأحباب الكرام لما علم أعداؤنا أن الشباب هم عصب الأمم صاروا أهم شيئ عندهم، فخططوا كيف يفسدونهم، فقال أحدهم: «كأس وغانية يفعلان بالمسلمين ما لا يفعله ألف مدفع»، فأوقعوا شباب المسلمين في الشهوات، وغزوا شباب المسلمين بالغزو الفكري بأن يقللوا من كل ماهو إسلامي، ويرفعوا من كل ما هو غربي، وساعدهم على ذلك المنافقين، حتى فسد كثير من شباب المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٩- الشباب هم أتباع الأنبياء

كما أخبر الله تعالىٰ عن أتباع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي في أول بادىء الرأى.

وقال تعالىٰ عن أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

[يونس:٨٣]

وكذلك أصحاب الكهف الذين تركوا الشرك، وعبدوا الله عَزَّوَجَلَّ وحده، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾.

[الكهف:١٣]

وكذلك أتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال أبو حمزة الخارجي: وهل كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا شبابًا.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كنا نغزو مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن شباب**» [رواه البخاري ومسلم].

١٠- شباب سلفنا الصالحين قدوة للناشئين

الشباب هو أصل الأمة الذي يُبنى عليه مستقبلنا، وكان صلاحه مبنيّاً عل دعائم من الدين والأخلاق، فسيكون للأمة مستقبل زاهر.

الشباب هم عَصَبُ حياة الأمم وسرُ تقدم الشعوب، وأُمَّمٌ بدون شباب أمَّة بلا مستقبل، فالشباب قوة إن أحسَنّا استغلالها وتوجيهها، فشباب اليوم هم رجال الغد، ولما كانت الأمة الإسلامية الأولى مليئة بالشباب الصالح الذي تربى على آبائه الصحابة الكرام، وتحت سمع وبصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتحوا الدنيا بأسرها واستعمروها بالعلم النافع والعمل الصالح [قضايا الشباب].

كما قال الشاعر:

شبابَ الجيل للإسلام عودوا ... فأنتم روُحه وبكم يسود

وأنتم سرُّ نهضته قديمًا ... وأنتم فجرُهُ الزّاهي الجديد

عليكم بالعقيدة فهى درعٌ ... نصون به كراماتنا حديد

١١- فضل الشاب الذى ينشأ فى طاعة الله

عن سلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظلِّ عرشه يومَ القيامة: رجلٌ إذا ذَكر الله خاليًا فاضت عيناه، ورجلٌ أفنى شبابَه ونشاطَه في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمساجد من حُبِّها، ورجلٌ تصدَّق بيمينه وكان يُخفيها من شماله، ورجلان التقيا، فقالَ كلُّ واحد منهما: إني أحبُّك في الله، تصادَرا على ذلك، ورجلٌ أرسلت إليه امرأةٌ ذاتَ منصبٍ تدعوه إلى نفسِها فقال: إني أخاف الله، وإمام مُقتصِدٌ»[١].

وعن عُقبةَ مرفوعًا: «إن ربَّك لَيعجَبُ للشابِّ لا صبُوةَ له»[٢].

ولله درُّ هذا ودرُّ مكانتِه، ولو لم يكن له من ثناءٍ إلا أنَ يَعَجَبَ ربُّه منه لكفى: «يَعظُمُ عنده قَدْرًا، فيُجزِلُ له أجرًا، لكونه ليست له (صبَوة)، أي ميلٌ إلى الهوى بحُسنِ اعتياده للخير وقوَّةِ عزيمته في البُعد عن الشر، قال حُجَّةُ الإسلام: وهذا عزيزٌ نادرٌ، فذلك قُرنِ بالتعجب»[٣].

---

(١) إسناده حسن: رواه سعيد بن منصور في (سننه)، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) (٢/ ١٤٤).

(٢) إسناده جيد: رواه الروياني في (مسنده) من رواية عبد الله بن وهب وهو أحد العبادلة عن ابن لهيعة، وأخرجه أحمد بلفظ: (إن الله ليعجب)، ووراه الطبراني في (الكبير) وأبو يعلى في (مسنده) وابن أبي عاصم في (السنة) وابن المبارك في (الزهد)، وقال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن)، وجوَّد إسناده الألباني في (الصحيحة) (٦/ ٨٢٤-٨٢٦) حديث رقم (٢٨٤٣). وصبوة: أي ميل إلى الهوى، وهي المَرَّة منه، انظر (النهاية).

(٣) فيض القدير للمناوي (٢/ ٢٦٣).

وهل الأفضل من نشأ لا صَبْوةَ له لكونه لم يَلبس كبيرةً ونجا من ضررها وخطرها والسؤالِ عنها يوم القيامة، أو مَن قارفَ الذنوب وتاب توبةً نصوحًا لكونه قَلَعَ عن الشهوات لله بعد إلفِه لها وتعوُّدِه لَذَّتَها، ثم فارقَ لَذَّتَه وشهوتَه لله؟ قولان، والأولُ أولى وأفضل [ترطيب الأفواه بمن يظلهم الله د/ العفاني].

١٢ - يسأل العبد عن شبابه فيما أبلاه

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**» [حسن الترمذي].

إن أهم مراحل في عمر الإنسان هي الشباب ولذلك يُسأل العبد عن عمره عامة، وعن شبابه خاصة، لأنها فترة القوة والحيوية والطاقة والصحة والنشاط، فإن استغلها العبد في طاعة الله والعمل لخدمة دينه كانت السَّنَة في شبابه أفضل من عشر سنوات في سن الكبر.

قالت حفصة بنت سرين: «يا معشر الشباب خذوا من أنفسكم وأنتم شباب، فإني ما رأيت العمل إلا في الشباب».

١٣ - اغتنم شباب قبل هرمك

الشباب هو زمن العمل، لأنه فترة قوة بين ضعفين، ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ**:

شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[١].

وقال الإمام أحمد: «ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كُمِّي فسقط».

إن الشباب هو وقت القدرة على الطاعة، وهو ضيف سريع الرحيل فإن لم يغتنمه العاقل تقطعت نفسه بعدُ حسرات:

ما قلت للشباب: «في كنف الله ولا حِفْظِه» غداةَ استقلَّا ضيف زارنا أقام عندنا سوَّد الصحف بالذنوب وولَّى فمِن ثَمَّ يسألُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كلَّ عبد من عباده عن نعمة الشباب كيف صرَّفه، وبم أبلاه، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ من عند ربه، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟»[٢].

وعدَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «شَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى»[٣].

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «ما آتى الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا علمًا إلا شابًّا، والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، وقوله

---

(١) رواه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي، وقال: (حديث غريب)، وهو حسن لشواهده، وانظر: (الصحيحة) رقم (٩٤٦).

(٣) أصل الحديث متفق عليه.

تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾».

قالت حفصة بنت سيرين: يا معشر الشباب اعملوا، فإنما العمل في الشباب، وقال الأحنف بن قيس: «السودد مع السواد»[1].

وهل كان صحابة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه إلا شبابًا؟!

وهذا أسامة بن زيد رضي الله عنهما أمره ﷺ على الجيش وكان عمره ثماني عشرة سنة، وهذا عتَّاب بن أَسيد استعمله النبي ﷺ على مكة لما سار إلى حُنين وعمره نيف وعشرون سنة.

وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي: يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوِّه، وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟ فقال له أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر، إنَّ علم سفيان إن فاتني بعُلُوٍّ أدركتُه بنزول، وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بِعُلُوٍّ ولا نزول.

قد وفد على عمر بن عبد العزيز من العراق، فنظر إلى شاب منهم من يجوَّز يريد الكلام، فقال عمر: «كبِّروا كبروا» فقال الفتى: يا أمير المؤمنين إن الأمر ليس

(١) السواد هنا يحتمل معاني منها: أن يراد به سواد الشعر، يقول: من لم يسُد مع الحداثة لم يَسُد مع الشيخوخة.

بالسن، ولو كان كذلك كان في المسلمين من أسنّ منكُ، قال: صدقت، فتكلم [كتاب علو الهمة].

وقال الإمام المناوى: اغتنم خمسً قبل خمس. أي: افعل خمسة أشياء قبل حصول خمسة أشياء: حياتك قبل موتك. يعنى: اغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك فإن من مات انقطع عمله، وفاته أمله، وحق ندمه وتوالى همه، فاقترض منك لك. وفراغك قبل شغلك، أي: اغتنم فراغك في هذه الدار قبل شغلك بأهوال القيامة التى أول منازلها القبر فاغتنم فرصة الإمكان لعلك تسلم من العذاب والهون.

وشبابك قبل هرمك: أي: اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك، فتندم على ما فرطت في جنب الله.

وغناك قبل فقرك: أي: اغتنم التصدق بفضول مالك قبل عروض جائحة تفقرك، فتصير فقيرًا في الدنيا والآخرة، فهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها.

قال أحد الأئمة: الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالىٰ والبدن مركب، ومن ذهل عن تدبير المنازل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله الذى هو السلوك.

[فيض القدير]

١٤- مرحلة الشباب بين ضعفين

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤].

فهذه المرحلة من العمر هي أهم المراحل لما تتميز به عن غيرها، فالإنسان يتفاوت قوةً وضعفًا، فهو يخرج إلى الدنيا صغيرًا ضعيفًا، لا يعلم شيئًا، ثم يكبر شيئًا فشيئًا، فيقوى جسمه وتنمو حواسه ويزداد عقلاً وعلمًا، حتى يبلغ أشده.

ولكن هذه الفترة من القوة التى تصاحب مرحلة الشباب لا تدوم، فإن الإنسان يرد مرة أخرى إلى الضعف إذا تقدم به العمر.

والشباب هو أطول مرحلة العمر، إن سن الطفولة من الولادة حتى نهاية الرابعة عشرة، وسن الشباب من بداية الخامسة عشرة إلى نهاية الأربعين. وسن الكهولة من الحادية والأربعين حتى نهاية الخمسين. وسن الشيخوخة بعد ذلك إلى أخر العمر. نجد أن مرحلة الشباب هى أعلى نسبة في مراحل العمر، لذا فإنه يكون فيها أكثر تجارب الحياة والعمل والإنتاج.

فالشباب مرحلة القوة والنشاط والطاقة والطموح الوهاج.

الشباب متعَلَّق آمال الأمة، فهو مرحلة العطاء المثمر، وروضُ الإبداع المزهر وبستان النضارة والفتوة، واللياقة والقوة.

والشباب هو الذي يتمناه الصغيرُ، ويتحسّر على فراقه الكبير، فتراه يقول في مرحلة الشيخوخة:

فيا ليت الشبابَ يعودُ يومًا فأخبره بما فعل المشيبُ

يقول الإمام أحمد بن حنبل: ما شبّهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

١٥ - دور الشباب فى السيرة النبوية

الشباب عماد النهضات، وهم أهل العزائم والشجاعة والإقدام والتضحيات، وقد كانوا حَمَلة الدعوة الإسلامية الأولى وأنصار الحق.

وحين نقرأ سيّر أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نجد أن معظمهم كانوا من الشباب، فأبو بكر الصديق من أكبر الصحابة، أسلم وعمره (٣٨) سنة، فكيف بصغار الصحابة.

وهذا علي بن أبي طالب أسلم وهو في العاشرة من عمره ويوم الهجرة كان الفدائى الذي نام في فراش النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكان عمره يومئذ (٢٣) سنة وعرّض نفسه للقتل ونقمة قريش، ثم أكرمه الله بأن جعل على فراشه فاطمة.

وهذا الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أسلم وهو ابن سن عشرة سنة، وهو حواري رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأول من سلّ سيفه في سبيل الله وكان فارسًا مغوارًا، لم يتخلف عن غزوة واحدة.

وهذا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلم وهو في السابعة عشرة من عمره، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان مستجاب الدعاء.

وهذه الصحابية المجاهدة ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر أسلمت وعمرها يوم أسلمت كان عمرها أربعة عشرة سنة.

والموقف الذى أشتهرت به حملُها الزاد لرسول الله وهو في طريق الهجرة.

وهذا الأرقم بن أبي الأرقم: أسلم بعد ستة نفر وكانت داره على الصفا بمكة، وفيها استتر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعا الناس فيها إلى الإسلام.

[صفة الصفوة، تربية الأبناء فالإسلام]

***

قصة أصحاب الجنتين

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وإحسانهم فضرب لهم مثلًا برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أى بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة فى جنباتهما وفى خلالهما الزروع وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل فى غاية الجودة ولهذا قال: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أى أخرجت ثمرها ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أى ولم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ أى والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ قيل المراد به المال روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وقيل الثمار وهو أظهر هاهنا ويؤيده القراءة الأخرى ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٞ﴾ بضم الثاء وتسكين الميم فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب. وقرأ آخرون ثمر بفتح الثاء والميم فقال أى صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره أى يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويتراءس ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ أى أكثر

خدمًا وحشمًا وولدًا. قال قتادة تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر وقوله: ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيهما من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفرة بالآخرة ولهذا قال ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أى كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أى ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ولولا كرامتى عليه ما أعطانى هذا كما قال فى الآية الأخرى ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: ٧٧]، أى فى الدار الآخرة تألى على الله عَزَّوَجَلَّ وكان سبب نزولها فى العص بن وائل كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٧-٤١].

يقول تعالى مخبرًا عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أى كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية كل أحد يعلمها من نفسه فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا يعلم أنه كان معدومًا ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شىء من المخلوقات لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء ولهذا قال المؤمن ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أى: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالواحدنية والربونية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أى بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ثم قال ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أى: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شىء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ

نِعْمَةٍ مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَيَرَى فِيهِ آفَةً دُونَ الْمَوْتِ» [شعب الإيمان]، وكان يتأول هذه الآية ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدى عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصلح حديثه. وقد ثبت فى الصحيح عن أبى موسى أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ تُكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» [صحيح البخارى].

وقوله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال ابن عباس وغيره أى عذابًا من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أى: بلقعًا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم وقال ابن عباس كالجرز الذى لا ينبت شيئًا، وقوله ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أى: غائرًا فى الأرض وهو ضد النابع الذى يطلب وجه الأرض فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ والغور مصدر بمعنى غائر.

يقول تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٢-٤٤].

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التى اغتر بها وألهته عن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ وقال قتادة يصفق كفته متأسفًا متلهفًا على الأموال التى أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أى عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ اختلف القراء هاهنا فمنهم من يقف على قوله ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ﴾ أى فى ذلك الموطن الذى حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ويبتدىء بقوله ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدىء بقوله ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ثم اختلفوا فى قراءة الولاية فمنهم من فتح الواو من الولاية فيكون المعنى هنالك الموالاة لله أى هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخبارًا عن فرعون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠]، ومنهم من كسر الواو من الولاية أى هنالك الحكم لله الحق ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله عَزَّوَجَلَّ كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾

[الأنعام: ٦٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أى جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى الأعمال التى تكون لله عَزَّوَجَلَّ ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦].

الدروس والعبرمن القصة:

١- فضل العلم لأن المؤمن في هذه القصة فُضل على هذا الكافر الجاحد بالعلم والعمل.

٢- المال سبب الطغيان: كما هو في هذه القصة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، **وقال تعالى:** ﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

فمن أعظم أسباب الطغيان هو كثرة الأموال.

٣- الدنيا لا تدوم لأحد: فلو دامت لأحد لم تصل إليه وإلى غيره كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الموت فضح الدنيا ولا يغتر بها عاقل، فأي نعيم دنيوي لابد أن تحرم منه إما أن تموت وتتركه وإما أن يتركك هو، وهذا هو حال الدنيا وأهلها والعاقل هو الذي يستغل هذه النعم فى مرضات الله وما يقرب إليه.

٤- **الذي ينكر اليوم الآخر كفر**: لأن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان الستة التى ذكرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» [رواه الإمام أحمد في صحيح الجامع].

٥- **عدم شكر الله على النعم سبب لزوالها**: كما هي في القصة، وقد قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [ابراهيم: ٧].

٦- **أن الله تعالى يعطي الدنيا لأي أحد**: فالدنيا يعطها الله تعالى لمن يحب ومن لا يحب ولكن لا يعطي الدين إلا لمن أحب، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا**» [رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني]، فالكافر يشرب فى أنية الذهب والفضة ويأكل ويشرب ويتنعم بأعظم النعيم الدنيوي لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

فمن رحمة الله تعالى أنه لم يفعل ذلك إلا رحمة بالمؤمن حتى لا يغتر بهذا النعيم فى الدنيا، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**».

[المستدرك على الصحيحين]

فالله تعالى يعلم ما ينفع المؤمن فكما أنك تحمي مريضك أن يأكل الطعام والشراب الذي يضره، فكذلك الله تعالى يحجب بعض النعيم الدنيوي عن عبده المؤمن حماية به ولكرامة هذا المؤمن عنده وانظر حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٧- **المال ليس مذموم لذاته**: وإنما يذم إذا أبعد الإنسان عن ربه وكان سببًا للكبر والعجب، ولكن من حلال، وأنفق في حلال وأدى زكاته ولم يعصي الله به، فنعم المال الصالح للعبد الصالح كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**» [الإمام أحمد].

فالمال يحج به البيت، ويضحي به، ويسعد فقراء ومساكين، ولكن أين هؤلاء الأفاضل؟ قليل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَآخَرُ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» [الإمام أحمد].

٨- **الغني والفقير كلاهما مختبرين**: قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فجعل الله تعالى الخير فتنة أي يشكر أم يكفر بالنعمة.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

فكثير من الجهال يظن أن الله تعالى إذا أعطاهم وأغناهم دليل على محبته وإذا ضيق عليهم في رزقهم أن الله تعالى لا يحبهم وهذا خطأ لأن الجواب من الله تعالى ﴿كَلَّا﴾، لأن ابتلاء هذا بالغنى والعافية فإذا شكر وأطاع الله تعالى كان إكرام من الله تعالى، وإما إذا طغى وعصى الله تعالى فكان ذلك سبب لهلاكه وكان هذا النعيم نقمة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصية الله فذلك استدراك**» [صحيح الجامع].

كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وابتلاء الله تعالى الفقير وضيق الرزق فإن صبر كان خير له فالغني مختبر، والفقير مختبر، ولكن أكثر الفقراء صابرين، ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رأيت الجنة فرأيتي أكثرها من الفقراء**» [صحيح الجامع].

***

قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٠-٦٥].

سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه وقال لفتاه ذلك ﴿ لَآ أَبْرَحُ ﴾ أي لا أزال سائرًا ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين.

قال قتادة: وغير واحد هما بحر فارس ما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب، **وقال محمد بن كعب القرظي:** مجمع البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب فالله أعلم، وقوله ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أي ولو أني أسير حقبًا من الزمان. قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس سنة ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد سبعون خريفًا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس قوله ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال داهرًا، وقول ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة فسارا حتى بلغا مجمع البحرين وهناك عين يقال لها عين الحياة فناما هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب وكان فى مكتل مع يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ وطفر من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب في الأرض قال ابن جرير قال ابن عباس صار أثره كأنه حجر. وقال العوفي عن ابن عباس جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، وروى محمد بن إسحاق عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ذكر حديث ذلك: ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير مكان الحوت الذي فيه فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾. **وقال قتاده**: سرب من الحر حتى أفضى إلى البحر ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلا صار ماء جامدًا وقوله ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي الحوت فيه ونسب النسيان إلهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح على أحد القولين فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا﴾ أي الذي جاوز فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعني تعبًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي

نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، قال قتادة: وقرأ ابن مسعود أن أذكر له ولهذا قال ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ أي طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

روى البخاري عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ نَوْفًا الْبَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَقَالَ أَنَا فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ بَلَى لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ أَيْ رَبِّ وَمَنْ لِي بِهِ وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ أَيْ رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ قَالَ تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ حَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ»، وَرُبَّمَا قَالَ فَهُوَ ثَمَّهْ وَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَرَقَدَ مُوسَى وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فَخَرَجَ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ فَقَالَ هَكَذَا مِثْلُ الطَّاقِ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ الْغَدِ ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ

لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ قَالَ لَهُ فَتَاهُ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلَهُمَا عَجَبًا قَالَ لَهُ مُوسَى ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسَى فَرَدَّ عَلَيْهِ فَقَالَ وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ قَالَ أَنَا مُوسَى قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ قَالَ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنْ الْبَحْرِ إِذْ أَخَذَ الْفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحًا قَالَ فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالْقَدُّومِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى مَا صَنَعْتَ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ الْبَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَوْمَأَ سُفْيَانُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ مُوسَى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا» قَالَ سُفْيَانُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوْ كَانَ صَبَرَ لَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا» وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ وكان يقرأ: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم وقوله ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي أصحبك وأرافقك ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أي: مما علمك الله شيئًا أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح فعندها ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن

﴿ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي: أنك لا تقدر عن مصاحبتي لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك لأني على علم من علم الله ما علمكه الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنه التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ أي: على ما أرى من أمورك ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ أي: ابتداء ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

روي ابن جرير عن ابن عباس قال: سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه عَزَّوَجَلَّ فقال أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني. قَالَ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَقْضَى؟ قَالَ: الَّذِي يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلَا يَتَّبِعُ الْهَوَى. قَالَ أَيْ رَبِّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ الَّذِي يَبْتَغِي عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ، عَسَى أَنْ يُصِيبَ كَلِمَةً تَهْدِيهِ إِلَى هُدًى أَوْ تَرُدُّهُ عَنْ رَدًى. قَالَ: أَيْ رَبِّ هَلْ فِي أَرْضِكَ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنِّي؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟ قَالَ الْخَضِرُ. قَالَ: فَأَيْنَ أَطْلُبُهُ؟ قَالَ عَلَى السَّاحِلِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ، الَّتِي يَنْفَلِتُ عِنْدَهَا الْحُوتُ. قَالَ: فَخَرَجَ مُوسَى يَطْلُبُهُ، حَتَّى كَانَ مَا ذَكَرَ اللهُ، وَانْتَهَى مُوسَى إِلَيْهِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ، فَسَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ. فَقَالَ لَهُ

مُوسَى: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَصْحَبَنِي قَالَ إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ صُحْبَتِي. قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِنْ صَحِبْتَنِي ﴿فَلَا تَسْئَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قَالَ: فَسَارَ بِهِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَجْمَعِ الْبُحُورِ، وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ مَكَانٌ أَكْثَرُ مَاءً مِنْهُ. قَالَ: وَبَعَثَ الله الْخُطَّافَ، فَجَعَلَ يَسْتَقِي مِنْهُ بِمِنْقَارِهِ، فَقَالَ لِمُوسَى: كَمْ تَرَى هَذَا الْخُطَّافَ رَزَأَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ؟ قَالَ: مَا أَقَلَّ مَا رَزَأَ! قَالَ: يَا مُوسَى فَإِنَّ عِلْمِي وَعِلْمَكَ فِي عِلْمِ الله كَقَدْرِ مَا اسْتَقَى هَذَا الْخُطَّافُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ. وَكَانَ مُوسَى قَدْ حَدَّثَ نَفْسَهُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْهُ، أَوْ تَكَلَّمَ بِهِ، فَمِنْ ثَمَّ أُمِرَ أَنْ يَأْتِيَ الْخَضِرَ. وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ فِي خَرْقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الْغُلَامِ، وَإِصْلَاحِ الْجِدَارِ، وَتَفْسِيرِهِ لَهُ ذَلِكَ.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧١-٧٣].

يقول تعالى مخبرًا عن موسى وصاحبه وهو الخضر أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه فركبا في السفينة وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعني بغير أجرة تكرمة للخضر فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولجت أي دخلت اللجة قام الخضر فخرقها واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رقعها فلم يملك موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه أن قال منكرًا عليه ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل كما قال الشاع:

لدوا للموت وابنوا للخراب

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال مجاهد منكرًا وقال قتادة عجبًا فعندها قال له الخضر مذكرًا بما تقدم من الشرط ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصدًا وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها لأنك لم تحط بها خبرًا ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي لا تضيق علي ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا».

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٤-٧٦].

يقول تعالى ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي بعد ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى وأنه عمد إليه من بينهم وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله، وروي أنه احتز رأسه وقبل رضخه بحجر، وفي رواية اقتلعه بيده والله أعلم فلما شاهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا أنكره أشد من الأول وبادر فقال ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ولا

عملت إثمًا بعد فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي ظاهر النكارة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضًا في التذكار بالشرط الأول فلهذا قال له موسى ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة.

روي ابن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ، بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: «ذَاتَ يَوْمٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ الْعَجَبَ وَلَكِنَّهُ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا».

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمَا: إِنَّهُمَا ﴿فَانطَلَقَا﴾ بَعْدَ الْمُرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ أَنَّهَا الْأَيْلَةُ وَفِي الْحَدِيثِ: «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا» أَيْ بُخَلَاءَ ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحْدَثَاتِ بِمَعْنَى الْمَيْلِ. وَالِانْقِضَاضُ هُوَ: السُّقُوطُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أَيْ: فَرَدَّهُ إِلَى حَالَةِ الِاسْتِقَامَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدَيْهِ، وَدَعَمَهُ حَتَّى رَدَّ مَيْلَهُ. وَهَذَا خَارِقٌ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَهُ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيْ: لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّفُونَا كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا تَعْمَلَ لَهُمْ مَجَّانًا ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أَيْ: لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، فَهُوَ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أَيْ: بِتَفْسِيرِ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، على باطنة فقال إن: السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ صالحة، أي: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

وقد روى ابن جريج عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي؛ أن اسم ذلك الملك هُدَدَ بن بُدَدَ، وقد تقدم أيضًا في رواية البخاري، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا الْغُلَامَ كَانَ اسْمُهُ جَيْسُورَ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أَيْ: يَحْمِلُهُمَا حُبُّهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ.

قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ، وَحَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ، وَلَوْ بَقِيَ كَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا، فَلْيَرْضَ امْرُؤٌ بِقَضَاءِ اللهِ، فَإِنَّ قَضَاءَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ.

وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أَيْ: وَلَدًا أَزْكَى مِنْ هَذَا، وَهُمَا أَرْحَمُ بِهِ مِنْهُ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَبَرُّ بِوَالِدَيْهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمَا بُدِّلَا جَارِيَةً. وَقِيلَ لَمَّا قَتَلَهُ الْخَضِرُ كَانَتْ أُمُّهُ حَامِلًا بِغُلَامٍ مُسْلِمٍ. قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْقَرْيَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ; لِأَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ [الكهف: ٧٧]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، يَعْنِي: مَكَّةَ وَالطَّائِفَ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ هَذَا الْجِدَارَ إِنَّمَا أُصْلِحُهُ لِأَنَّهُ كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا. قَالَ عِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: كَانَ تَحْتَهُ مَالٌ مَدْفُونٌ لَهُمَا. وَهَذَا ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ عِلْمٍ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: صُحُفٌ فِيهَا عِلْمٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ مَا يُقَوِّي ذَلِكَ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْخَالِقِ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ الْمَشْهُورِ: عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**إِنَّ الْكَنْزَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مُصْمَتٍ مَكْتُوبٍ فِيهِ: عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدْرِ لِمَ نَصِبَ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ النَّارَ لِمَ ضَحِكَ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ لِمَ غَفَلَ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**».

وعن ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ حَبِيبِ بْنِ نُدْبَةَ حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، عَنْ نُعَيْمٍ الْعَنْبَرِيِّ - وَكَانَ مِنْ جُلَسَاءِ الْحَسَنِ - قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ - يَعْنِي الْبَصْرِيَّ - يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قَالَ: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مَكْتُوبٍ فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُوقِنُ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

عَنْ عُمَرَ مَوْلَى غُفْرَةَ قَالَ: إِنَّ الْكَنْزَ الَّذِي قَالَ اللهُ فِي السُّورَةِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا الْكَهْفَ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ مُصْمَتٍ مَكْتُوبًا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجَبٌ لِمَنْ عَرَفَ النَّارَ ثُمَّ ضَحِكَ! عَجَبٌ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ نَصِبَ! عَجَبٌ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ أَمِنَ! أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَازِمٍ الْغِفَارِيُّ، حَدَّثَنَا هَنَّادَةُ بِنْتُ مَالِكٍ الشَّيْبَانِيَّةُ قَالَتْ: سَمِعَتْ صَاحِبِي حَمَّادَ بْنَ الْوَلِيدِ الثَّقَفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قَالَ: سَطْرَانِ وَنِصْفٌ لَمْ يَتِمَّ الثَّالِثُ: عَجِبْتُ لِلْمُوقِنِ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتْعَبُ وَعَجِبْتُ لِلْمُوقِنِ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ؟ وَعَجِبْتُ لِلْمُوقِنِ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الزخرف: ٣١]، قَالَتْ:

وَذُكِرَ أَنَّهُمَا حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يُذْكَرْ مِنْهُمَا صَلَاحٌ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْأَبِ الَّذِي حُفِظَا بِهِ سَبْعَةُ آبَاءٍ، وَكَانَ نَسَّاجًا. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ، وَوَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الْمُتَقَدِّمُ وَإِنْ صَحَّ، لَا يُنَافِي قَوْلَ عِكْرِمَةَ: أَنَّهُ كَانَ مَالًا لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ، وَفِيهِ مَالٌ جَزِيلٌ، أَكْثَرُ مَا زَادُوا أَنَّهُ كَانَ مُودَعًا فِيهِ عِلْمٌ، وَهُوَ حِكَمٌ وَمَوَاعِظُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَلِحًا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يَحْفَظُ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَتَشْمَلُ بَرَكَةُ عِبَادَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ وَرَفْعِ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لِتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَوَرَدَتِ السُّنَّةُ بِهِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يُذْكَرْ لَهُمَا صَلَاحٌ، وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ الْأَبَ السَّابِعَ. فَاللهُ أَعْلَمُ وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ هَاهُنَا أَسْنَدَ الْإِرَادَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى; لِأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ; وَقَالَ فِي الْغُلَامِ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ: فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي فَعَلْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ، وَوَالِدَيِ الْغُلَامِ، وَوَلَدَيِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي لَكِنِّي أُمِرْتُ بِهِ

وَوُقِفْتُ عَلَيْهِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ بِنُبُوَّةِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾.

وَقَالَ آخَرُونَ: كَانَ رَسُولًا. وَقِيلَ بَلْ كَانَ مَلِكًا. نَقَلَهُ الْمَاوَرْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ. وَذَهَبَ كَثِيرُونَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا. بَلْ كَانَ وَلِيًّا. فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي الْمَعَارِفِ أَنَّ اسْمَ الْخَضِرِ بَلْيَا بْنُ مَلْكَانَ بْنِ فَالِغَ بْنِ عَامِرِ بْنِ شَالِخَ بْنِ أَرفخشذ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا: وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا الْعَبَّاسِ، وَيُلَقَّبُ بِالْخَضِرِ، وَكَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ فِي تَهْذِيبِ الْأَسْمَاءِ، وَحَكَى هُوَ وَغَيْرُهُ فِي كَوْنِهِ بَاقِيًا إِلَى الْآنِ ثُمَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَوْلَيْنِ، وَمَالَ هُوَ وَابْنُ الصَّلَاحِ إِلَى بَقَائِهِ، وَذَكَرُوا فِي ذَلِكَ حِكَايَاتٍ وَآثَارًا عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ وَجَاءَ ذِكْرُهُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ. وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَأَشْهَرُهَا أَحَادِيثُ التَّعْزِيَةِ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ. وَرَجَّحَ آخَرُونَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَغَيْرِهِمْ خِلَافَ ذَلِكَ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ:٣٤] وَبِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلَكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»، وَبِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا حَضَرَ عِنْدَهُ، وَلَا قَاتَلَ مَعَهُ. وَلَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ مِنْ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ; لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَقَدْ قَالَ: «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ مَا وَسِعَهُمَا إِلَّا اتِّبَاعِي» وَأَخْبَرَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِقَلِيلٍ: أَنَّهُ لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ لَيْلَتِهِ تِلْكَ عَيْنٌ تَطْرِفُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَضِرِ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَحْتَهُ تَهْتَزُّ خَضْرَاءَ».

وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ. وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ [مِنْ خَلْفِهِ] خَضْرَاءَ» وَالْمُرَادُ بِالْفَرْوَةِ هَاهُنَا الْحَشِيشُ الْيَابِسُ، وَهُوَ الْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ، قَالَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ وَجْهُ الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أَيْ: هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لَهُ وَبَيَّنَهُ وَوَضَّحَهُ وَأَزَالَ الْمُشْكَلَ قَالَ: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَالَ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فَقَابَلَ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ، وَالْأَخَفَّ بِالْأَخَفِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَهُوَ الصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ، ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَـرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وَهُوَ أَشَقُّ مِنْ ذَلِكَ، فَقَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظًا وَمَعْنًى وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا بَالُ فَتَى مُوسَى ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ ثُمَّ لَمْ يُذْكَرْ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالسِّيَاقِ إِنَّمَا هُوَ قِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ وَذِكْرُ مَا كَانَ

بَيْنَهُمَا، وَفَتَى مُوسَى مَعَهُ تَبَعٌ، وَقَدْ صُرِّحَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَلِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، حَدَّثَنِي ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: لِمَ نَسْمَعْ لِفَتَى مُوسَى بِذِكْرٍ مِنْ حَدِيثٍ وَقَدْ كَانَ مَعَهُ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاس فِيمَا يُذْكَرُ مِنْ حَدِيثِ الْفَتَى قَالَ: شَرِبَ الْفَتَى مِنَ الْمَاءِ فَخَلَدَ، فَأَخَذَهُ الْعَالِمُ، فَطَابَقَ بِهِ سَفِينَةً ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهَا تَمُوجُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ; وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ فَشَرِبَ إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ، وَالْحَسَنُ مَتْرُوكٌ، وَأَبُوهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ.

الدروس والعبر من القصة:

١- لا يعلم أعلم أهل الأرض إلا الله فيجب على العالم ألا يظن أنه أعلم أهل زمانه إلا إذا شهد له أهل زمانه مثل الإمام الشافعى وشيخ الإسلام.

٢- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلم من الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ

فسيدنا موسى أعلم منه لأنه من الرسل أول العزم وكليم الله تعالى وخط الله تعالى له التوراة بيده ولكن سيدنا الخضر أعلم منه فى هذه الجزئية التى علمه الله تعالى من أمور الغيب.

٣- قد يعلم الله تعالى من يشاء من عباده شيء من الغيب وهم الانبياء:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٥-٢٨].

٤- الرحلة فى طلب العلم:

كما رحل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الى الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأكثر العلماء رحلو إلى كثير من البلدان فى قطار الأرض من أجل طلب العلم.

٥- علو همة السلف فى طلب العلم:

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَعْتُ بَعِيرًا، فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، ثُمَّ سِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَإِذَا هُوَ عَبْدُ الله ابْنُ أُنَيْسٍ الأَنْصَارِيُّ، فَأَتَيتُ مَنْزِلَهُ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ: أَنَّ جَابِرًا عَلَى الْبَابِ، فَرَجَعَ إِلَى الرَّسُولِ فَقَالَ: جَابِرُ ابْنُ عَبْدِ الله؟ فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الْمَظَالِمِ لَمْ أَسْمَعْهُ! قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الْعِبَادَ» أَوْ قَالَ: «النَّاسَ» وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ، «عُرَاةً عُزلا، بُهْمًا!». قَالَ: قُلْتُ: مَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُنَّ شَيءٌ، «فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ الدَّيَّانُ لا يَنْبَغِي

لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطلُبُ مَظْلَمَةً حَتَّى اللَّطْمَةَ».

قَالَ: قُلْنَا: وَكَيْفَ؟ وَإِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عُرَاةً، غُرْلاً! قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ».

[رواه أحمد، وحسنه الألباني]

وعن مسلم بن يسار أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ رَكِبَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، وَهُوَ بِمِصْرَ، حَتَّى لَقِيَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ»؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَبَّرَ الأَنْصَارِيُّ، وَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

وقال سعيد بن المسيب: إن كنتُ لأسري الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

وعن ربيعة بن يزيد قال: سمعت ابن الديلمي يقول: بلغني حديث عن عبد الله بن عمرو ابن العاص فركبت إليه إلى الطائف أسأله عنه، وكان ابن الديلمي بفلسطين، قال: فدخلت عليه وهو في حديقة له فوجدته مختصرًا بيد رجل، كنا نتحدث بالشام أن ذلك الرجل من شربة الخمر، قال: فقلت له: يا أبا محمد، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في شارب الخمر شيئًا؟ قال: فاختلج الرجل يده من يد عبد الله بن عمرو، فقال: نعم، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا».

وعن نوفل قال: رأيتُ ابنَ المبارك في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي برحلتي في الحديث، عليك بالقرآن، عليك بالقرآن.

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يكن في زمان ابن المبارك أحدٌ أطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن، وإلى مصر، والشام، والبصرة، والكوفة، وكان ممن رواة العلم، وكان أهل ذاك، كتب عن الكبار والصغار».

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والله الذى لا إله غيره لقد قرأتُ من في رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضعًا وسبعين سورة، ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لأتيته».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أُنْسِيتُ آيَةً ثُمَّ لَمْ أَجِدْ أَحَدًا يُذَكِّرْنِيهَا إلا رَجُلٌ بِبرْمِ الْغِمادِ رَحَلْتُ إِلَيْهِ».

قال الإمام أحمد: لقد كان علقمةُ والأسودُ يبلغهما الحديثُ عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر فيسمعان منه.

قال الخطيب البغدادي: هذان الإمامان الجليلان من أئمة التابعين يخرجان من العراق إلى المدينة مسيرة شهر لكي يسمعا من عمر حديثًا بلغهما عنه.

وقيل للإمام الشعبى: من أين لك هذا العلم كله؟ بنفي الاعتماد والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب.

قال رجل لأحد العلماء: بم أدركت العلم؟ قال: طلبته فوجدته بعيد المراد، لا يصاد بالسهام، ولا يرى في المنام، ولا يورث عن الآباء والأعمام.

فتوسلت إليه بافتراش المدرِ، واستناد الحجر، وإدمان السهر وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ومتابعة السفر، وركوب الخطر: فوجدته شيئًا لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس، ولا يسقي إلا بالدرس. أرأيت من يشغل نهاره بالجمع، وليله بالجماع هل يخرج من ذلك فقيهًا؟ كلا والله. إن العلم لا يحصل إلا لمن اعتضد الدفاتر، وحمل المحابر، وقطع القفار، وواصل في الطلب الليل والنهار.

قال أبو مسعود عبد الرحيم الحاجي: سمعت ابن طاهر يقول: بُلْتُ الدَّمُ في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، وأخرى بمكة، كنت أمشي حافيًا في الحر، فلحقني ذلك، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سالت في حال الطلب احدًا، كنت أعيش على ما يأتي.

قال الحافظ أبو إسحاق الحبال: كنتُ يومًا عند أبي نصر السجزي، فدُقَّ الباب، فقمتُ، ففتحتُ، فدخلت امرأة، وأخرجت كيسًا فيه ألف دينار، فوضعته بين يدي الشيخ، وقالت: أنفقها كما ترى! قال: ما المقصود؟ قالت: تتزوجني ولا حاجة لي في الزواج، ولكن لأخدمك. فأمرها بأخذ الكيس، وأن تنصرف، فلما انصرفت. قال: خرجتُ من سجستان بنية طلب العلم،

ومتى تزوجتُ، سقط عني هذا الاسم، وما أوثر على ثواب طلب العلم شيئًا.

والمقصود: كأنه يريد متى تزوج للذَّهب، نقص أجره، وإلا فلو تزوج في الجملة، لكان أفضل، ولما قدح ذلك في طلبه العلم، بل يكون قد عمل بمقتضى العلم، لكنه كان غريبًا، فخاف العَيْلة، وأن يتفرق عليه حاله عن الطلب.

وأنفق يحيى بن معين خمسمائة دينار في طلب الحديث ورثها من أبيه حتى مشى حافيًا.

وخرج بقي بن مخلد من بلاد الأندلس على قدميه إلى الإمام أحمد في بغداد لطلب الحديث [رحلة في طلب الحديث].

٦- القلوب الطاهرة التقية لا تتحمل أذى المخلوقات عمومًا والناس خصوصًا.

كما فهذه القصة فسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتحمل خرق السفينة وقتل الغلام، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» [صحيح مسلم].

فالمؤمن يتألم بالآم الناس خصوصًا المسلمين ويحب الخير لجميع الناس.

٧- في أقدار الله العجب:

كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ الْعَجَبَ وَلَكِنَّهُ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا» [صحيح الجامع].

٨- في القدر المكروه للمؤمن خير لا يعلمه:

كما هو في قصة قتل الغلام، فكان من أعظم الرحمة أن يموت هذا الغلام حتى لا يكون سببًا لكفر أبويه، فكذلك كل من حرم من نعمة الولد فالله تعالى أعلم بما يصلح العبد فكثير من الناس سبب شقاؤهم الدنيوي والأخروي هم أولادهم وهذا أمر مشاهد.

٩- الصالحون ينفعون أبنائهم بأعمالهم:

كما هو في قصة الجدار وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: يا بني إني أزيد في الصلاة من أجلك ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

[الكهف: ٨٢]

١٠- الراجح أن سيدنا الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي:

فالراجح من أقوال العلماء أن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي واستدلوا بأدلة منها:

الدليل الأول- قول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

والرحمة: هي النبوة كما قال تعالى عن كفار قريش ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، فالرحمه هى النبؤة فى الأية.

الدليل الثانى- قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، فالله تعالى علمه وليس العلم اللادنى هو علم الباطن كم يزعم الصوفية كما يقولون عن علماء أهل السنة، يعلمون علم الشرعية ونحن نعلم العلم الباطن اللادنى وهذا وجهال ودروش وزندقة.

الدليل الثالث- هذا علم غيب لا يعلمه إلا نبى يوحى كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

الدليل الرابع- قتل الغلام لا يكون إلا بوحى لأنه معصوم الدم ولا يجوز قتله إلا بأمر الله تعالى.

الدليل الخامس- لا يتعلم رسول إلا من نبى مثله.

الدليل السادس- قول الخضر لسيد موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فى قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف: ٧٨]. إذ لم يكن نبي فكيف يقول: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ لا يجوز له ذلك.

الدليل السابع- قوله تعالى على لسان الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

١١- النبي أعظم عند الله من الولي:

فكثير من الدراويش يقولون أن الولي في منزلة فوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والشهيد وهذا باطل ومن جهلهم لأن النبوة أعظم منها بكثير فلا مقارنة بينهما أصلًا كما بين السماء والأرض فالله تعالى اصطفى الأنبياء على الناس وعلى سائر الأولياء، والأنبياء هم سادة الأولياء في الدنيا والآخرة ولا يجوز للولي معصية ومخالفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن فعل فهو عاص وإن فعل شيء مكفر فهو كافر خارج من ملة الإسلام، والولي الحق هو المطيع لله تعالى المتبع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١٢- صفات أولياء الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

فذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن أولياءه لهم صفتان: الإيمان والتقوى، فكل أحد ليس فيه هاتان الصفتان ويدَّعي أنه من أولياء الله فهو كاذب منافق.

ما الإيمان؟

الإيمان شرعًا: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، أما قول اللسان كالشهادتين، وعمله كالذكر والتسبيح وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك، وأما قول القلب فهو اعترافه وتصديقه، وأما عمله فالحب والخوف والرجاء والإخلاص والتوكل وغيره، أما عمل الجوارح كالركوع والسجود والقيام وغيره، قال رسول الله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**» [متفق عليه]، فـ«لا إله إلا الله» قول اللسان، وإماطة الأذى عن الطريق عمل الجوارح، والحياء عمل القلب، فتبين أن الإيمان يشمل هذا كله، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال الإمام البخاري: «أدركتُ ألفَ شيخ من علماء الأمصار يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويتفاضل أهله فيه».

قال الحسن البصري: الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

وقال الحسن أيضًا: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

الأدلة على أن الإيمان يزيد:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

الأدلة على أن الإيمان ينقص:

قال رسول الله ﷺ للنساء وهو يعظهن: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**» [رواه البخاري].

تعريف التقوى

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

وقال الحسن: المتقون اتقوا ما حرم عليهم وأدوا ما افترض عليهم.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرًا فهو خير إلى خير.

وقال أبو الدرداء: تمام التقوى أن يتقى اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة.

وقد يترك العبد الذي يريد التقوى بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يقع في الحرام، ليكون حجابًا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بيَّن للعباد الذين مصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

فلا تحقرن شيئًا من الخير أن تفعله، ولا شيئًا من الشر أن تتقيه.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام.

وقال سفيان الثوري: إنَّما سُمُّوا متقين لأنهم اتقوا ما لا يُتَّقى.

وقال ميمون بن مهران: المتقي أشدُّ محاسبةً لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه.

وقال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: أن يُطاعَ فلا يُعصَى، وأن يُذكرَ فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفَر.

وسأل رجلٌ أبا هريرة عن التقوى، فقال: هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه، أو جاوزتُه، أو قصَّرتُ عنه، قال أبو هريرة: ذاك التقوى.

وأخذ المعنى ابن المعتز فقال:

خـــلِّ الذنـــــوبَ صـغـيرَهـا وكـــبـــيرَهـــا فـــهـــو التـــقى

واصـــنـــع كـــمـــاشٍ فـــوق أر ضِ الـــشـــوكِ يحـــذر مـــا يـــرى

لا تحـــقـــرنَّ صـــغـــيرةً إن الجـــبـــال مـــن الحـــصى

[جامع العلوم والحكم]

١٣- كيف تكون من أولياء الله:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» [رواه البخاري].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا**»: المراد بوليِّ الله العالمُ بالله، والمواظب على طاعته، المخلص في عبادته، فدل الحديث على السبب الذي يوصل العبد إلى أن يكون من أولياء الله، فالسبب الأول فعل ما افترضه عليه من الفرائض، وترك المحارم، والسبب الثاني التقرب إلى الله تعالى بالإكثار بالنوافل.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا طريق يوصل إلى التقرب إلى الله تعالى وولايته ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله، فمن ادَّعى ولاية الله والتقرب إليه بغير هذا الطريق تبين أنه كاذب في دعواه، فلذلك ذكر في هذا الحديث أن أولياء الله على درجتين؛ **إحداهما**- المتقربون بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أفضل الأعمال، كما قال عمر بن الخطاب: «أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرَّم الله، وصدق النية فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ».

والدرجة الثانية- درجة المقربين، وهم الذين يتقربون إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله» [انظر جامع العلوم والحكم].

قوله تعالى في الحديث القدسي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، فإذا اجتهد العبد بأداء الفرائض واجتناب المحارم وفعل النوافل وترك المكروهات صار هذا العبد موفقًا مسدَّدًا بحفظ الله، ولا يبطش إلا في ما يرضي اللهَ، ولا يمشي إلا في طاعة الله، فأهل محبة الله لا يفترون عن طاعة الله، ولا يسأمون من الذكر والخدمة وكل ما يقربهم إلى الله.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الفضيل بن عياض: «إن الله يقول: كذب من ادَّعى محبتي ونام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟».

ثم قال الله تعالى: «**وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»، صار هذا العبد مستجاب الدعوة، إذا سأل، وإذا استعاذ، مثل: أنس ابن النضر، وسعد بن أبي وقاص، والبراء بن مالك، وغيرهم من الصحابة والتابعين، كسعيد بن جبير، وأويس القرني.

واعلم أن أولياء الله لا يسألون الله إلا الجنة، ويستعيذون به من النار، ويسألونه العافية في الدنيا والآخرة، ولا يريدون علوًا في الأرض ولا جاهًا.

قيل لإبراهيم التيمي وهو في سجن الحجاج: لو دعوتَ الله تعالى. فقال: «أكره أن أدعوه أن يفرج عني ما لي فيه أجر».

وقد روي أن سعد بن أبي وقاص كان يدعو للناس لمعرفتهم بإجابة دعوته، فقيل له: لو دعوتَ الله لبصرك - وكان قد أضر -، فقال: «قضاء الله أحبُّ إليَّ من بصري».

وذُكِر لرابعة العدوية رجلٌ له منزلة عند الله وهو يقتات ما يلتقطه من المنبوذات على المزابل، فقالت رابعة: «إن أولياء الله إذا قضى الله لهم قضاءً لم يتسخطوه».

وكان حيوة بن شُريح ضيِّقَ العيش جدًا، فقيل له: لو دعوت الله أن يوسع عليك، فأخذ حصاة من الأرض، فقال: اللهم اجعلها ذهبًا، فصارت تبرةً في كفه، وقال: ما خير في الدنيا إلا الآخرة، ثم قال: هو أعلم بما يصلح عباده.

وربما دعا المؤمن المجاب الدعوة لما يعلم الله الخيرة له في غيره فلا يجيبه إلى سؤاله ويعوضه عنه ما هو خير له إما في الدنيا أو في الآخرة.

[انظر جامع العلوم والحكم]

هؤلاء ليسوا بأولياء بل هم أولياء الشيطان

الذين يستخفون بعقول الجهلاء، ويقولون الولي رُفِع عنه العمل لأنه وصل إلى مرحلة اليقين، فلا يصلي ولا يصوم، وزني ويشرب الخمور، ولا يتطهر من الجنابة، بل قد يكون ملابسه نجسة ورائحته خبيثة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا**» [رواه مسلم]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ**» [رواه الترمذي]، وترك الصلاة من أكبر الكبائر بل بعض العلماء يكفر تارك الصلاة متكاسلًا كفرًا يُخرج من الملة، لقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْعَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»

[رواه الترمذي، وصححه الألباني].

أما احتجاجهم على ترك الصلاة وسائر العبادات بقول الله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، فهذا خطاب من الله تعالى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

والنبي ﷺ لم يترك العبادة حتى توفاه الله تعالى، فكان في مرض الموت إذا أراد الوضوء للصلاة كان يُغمى عليه، فلم يترك العبادة حتى لقي ربه تعالى، ومعنى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، أي اعبد ربك حتى الموت، حتى تلقى ربك، وكما قال تعالى عن أهل النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر:٤٢-٤٧].

ولم يَرِدْ عن أفضل الأولياء بعد الأنبياء وهم الصحابة رضي الله عنهم أنهم تركوا العبادة حتى ماتوا، ولا التابعين، ولا الأئمة المهديين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان وعبد الله ابن المبارك والأوزاعي والفُضَيل وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من سادة العلماء العاملين الربانيين.

وإذا قلتَ لهؤلاء: لماذا تذهبون إلى قبر فلان الفلاني؟ يقولون: قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢].

نقول لهؤلاء: قال تعالى: ﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، فخصهم هم بعدم الخوف وعدم الحزن، لأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣]، لأنهم أطاعوا الله فيما أمرهم، واجتنبوا ما نهى الله عنه وزجر.

ثانيًا- أن هؤلاء لا يريدون أن يعملوا، بل يريدون الاتكال على هؤلاء الأولياء ويتركوا العمل ويفعلوا المحرمات، رجاء أن يشفع لهم هؤلاء عند

الله، ولن ينفعهم أحد، فقد قال رسول الله ﷺ -وهو سيد الأولياء-: «**يا فاطمة بنتَ محمد، اعملي فإني لا أملك لكِ من الله شيئًا**».

ثالثًا- من أدراك أن صاحب هذا القبر من أولياء الله؟ هل عندك برهان بذلك؟

ولو كان من أولياء الله، فهو يحتاج إلى الدعاء له بالرحمة والمغفرة، وإذا كان من أولياء الله حقًا فسوف يتبرأ منكم ومن أعمالكم التي تفعلونها عند قبره، قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٤].

العصمة ليست شرطًا في الولاية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

[البقرة:٢٨٦]، وقد ثبت في الصحيح أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: «قد فعلتُ»، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». فلم يؤثم المجتهد المخطئ بل جعل له أجرا على اجتهاده وجعل خطأه مغفورا له ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بتصرف].

لا بد من العرض على الكتاب والسنة

سُئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن الرجل يمشي على الماء، فقال: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في السماء فاعرض عملَه على الكتاب والسنة فإن وافق الكتابَ والسنةَ تكون كرامة، وإن خالف عملُه الكتابَ والسنةَ فهذه من الشيطان.

هذا قيد لكل من يدَّعي أنه من أولياء الله، بل أجمع العلماء على مقولة الإمام الشافعي.

تجد كثيرًا من الناس يقولون: فلان كان محمولًا في المحمل وهو ميت على الأكتاف وطار به النعش إلى مكان، وهذا الرجل لم يكن يصلي ويفعل كثيرًا من المحرمات، فالذي كان يحمل النعش هو الجن حتى يُفتَن جهالُ الناس ويبنوا له مقامًا يصرفون له فيه العبادة التي لا تُصرَف إلا لله، فيقعون في الشرك، عياذًا بالله من الضلال المبين.

وقال الإمام ابن القيم في قوله الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح:٢١-٢٤]، قال البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبِدَتْ»، وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فصوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم»، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل [إغاثة اللهفان].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وجماع الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان موافقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه هو الذي فرَّق الله به بين أوليائه وأعدائه، وبين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء، وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد، وأعدائه أهل الغيِّ والضلال والفساد، وبين أوليائه جند الرحمن، وأعدائه حزب الشيطان.

١٤- أدب سيدنا الخضر مع الله تعالى:

فقال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ عند خرق السفينة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

وعند الجدار ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

فالأنبياء أعظم أدابًا مع الله فهذا سيدنا ابراهيم كما قال تعالى عنه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠].

فعند ذكر المرض لم يقل وإذا أمرضتني فاشفيني، وكان الرسول ﷺ يقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»، وكان الجن عندما نزل القرآن على النبي ﷺ فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

[الجن: ١٠]

فعند الشر لم ينسبوه إلى الله وعند الخير نسبوه إلى الله، وكذلك يكون المؤمن مع الله تعالى.

***

قصة ذي القرنين

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ [الكهف: ٨٣] يَا مُحَمَّدُ ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أَيْ: عَنْ خَبَرِهِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ بَعَثَ كُفَّارُ مَكَّةَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَ مِنْهُمْ مَا يَمْتَحِنُونَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ فِي الْأَرْضِ، وَعَنْ فِتْيَةٍ لَا يُدْرَى مَا صَنَعُوا، وَعَنِ الرُّوحِ، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ.

وَقَدْ أَوْرَدَ ابْنُ جَرِيرٍ هَاهُنَا، وَالْأُمَوِيُّ فِي مَغَازِيهِ، حَدِيثًا أَسْنَدَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ جَاءُوا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا جَاءُوا لَهُ ابْتِدَاءً، فَكَانَ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ: «**أَنَّهُ كَانَ شَابًّا مِنَ الرُّومِ، وَأَنَّهُ بَنَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ، وَأَنَّهُ عَلَا بِهِ مَلَكٌ فِي السَّمَاءِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى السَّدِّ، وَرَأَى أَقْوَامًا وُجُوهُهُمْ مِثْلُ وُجُوهِ الْكِلَابِ**». وَفِيهِ طُولٌ وَنَكَارَةٌ، وَرَفْعُهُ لَا يَصِحُّ، وَأَكْثَرُ مَا فِيهِ أَنَّهُ مِنْ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَالْعَجَبُ أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ الرَّازِيَّ، مَعَ جَلَالَةِ قَدْرِهِ، سَاقَهُ بِتَمَامِهِ فِي كِتَابِهِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ غَرِيبٌ مِنْهُ، وَفِيهِ مِنَ النَّكَارَةِ أَنَّهُ مِنَ الرُّومِ، وَإِنَّمَا الَّذِي كَانَ مِنَ الرُّومِ الْإِسْكَنْدَرُ الثَّانِي ابْنُ فِيلِيبُسَ الْمَقْدُونِيُّ، الَّذِي تُؤَرِّخُ بِهِ الرُّومُ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ ذَكَرَهُ الْأَزْرَقِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوَّلُ مَا بَنَاهُ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، وَكَانَ مَعَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ، إِسْكَنْدَرُ بْنُ فِيلِيبُسَ الْمَقْدُونِيُّ الْيُونَانِيُّ، وَكَانَ

وَزِيرُهُ أَرِسْطَاطَالِيسَ الْفَيْلَسُوفَ الْمَشْهُورَ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَهُوَ الَّذِي تُؤَرِّخُ بِهِ مِنْ مَمْلَكَتِهِ مِلَّةُ الرُّومِ. وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِنَحْوٍ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ فَكَانَ فِي زَمَنِ الْخَلِيلِ، كَمَا ذَكَرَهُ الْأَزْرَقِيُّ وَغَيْرُهُ، وَأَنَّهُ طَافَ مَعَ الْخَلِيلِ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَمَّا بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَرَّبَ إِلَى اللهِ قُرْبَانًا، وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِهِ فِي كِتَابِ (الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ)، بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَلله الْحَمْدُ.

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: كَانَ مَلِكًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّ صَفْحَتَيْ رَأْسِهِ كَانَتَا مِنْ نُحَاسٍ، قَالَ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ: لِأَنَّهُ مَلِكَ الرُّومَ وَفَارِسَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ فِي رَأْسِهِ شِبْهُ الْقَرْنَيْنِ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: سُئِلَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ: كَانَ عَبْدًا نَاصَحَ اللهَ فَنَاصَحَهُ، دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَمَاتَ، فَأَحْيَاهُ اللهُ، فَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَمَاتَ، فَسُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ.

وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَزَّةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، سَمِعَ عَلِيًّا يَقُولُ ذَلِكَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّمْسِ وَيَغْرُبُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مُتَمَكِّنًا، فِيهِ لَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكُ، مِنَ التَّمْكِينِ وَالْجُنُودِ، وَآلَاتِ الْحَرْبِ وَالْحِصَارَاتِ؛ وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ، وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ، مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَيِ الشَّمْسِ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي عِلْمًا.

وَقَالَ قَتَادَةُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قَالَ: مَنَازِلَ الْأَرْضِ وَأَعْلَامَهَا.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قَالَ: تَعْلِيمُ الْأَلْسِنَةِ، كَانَ لَا يَغْزُو قَوْمًا إِلَّا كَلَّمَهُمْ بِلِسَانِهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ لَهِيعَةَ: حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ غَيْلَانَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ؛ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ لِكَعْبِ الْأَحْبَارِ: أَنْتَ تَقُولُ: إِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ يَرْبُطُ خَيْلَهُ بِالثُّرَيَّا؟ فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: إِنْ كُنْتُ قُلْتُ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾.

وَهَذَا الَّذِي أَنْكَرَهُ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ هُوَ الصَّوَابُ، وَالْحَقُّ مَعَ مُعَاوِيَةَ فِي الْإِنْكَارِ؛ فَإِنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَقُولُ عَنْ كَعْبٍ: «إِنْ كُنَّا لَنَبْلُو

عَلَيْهِ الْكَذِبَ» يَعْنِي: فِيمَا يَنْقُلُهُ، لَا أَنَّهُ كَانَ يَتَعَمَّدُ نَقْلَ مَا لَيْسَ فِي صَحِيفَتِهِ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِي صَحِيفَتِهِ، أَنَّهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي غَالِبُهَا مُبَدَّلٌ مُصَحَّفٌ مُحَرَّفٌ مُخْتَلَقٌ وَلَا حَاجَةَ لَنَا مَعَ خَبَرِ اللهِ وَرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ دَخَلَ مِنْهَا عَلَى النَّاسِ شَرٌّ كَثِيرٌ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ. وَتَأْوِيلُ كَعْبٍ قَوْلَ اللهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ وَاسْتِشْهَادُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا يَجِدُهُ فِي صَحِيفَتِهِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَرْبُطُ خَيْلَهُ بِالثُّرَيَّا غَيْرُ صَحِيحٍ وَلَا مُطَابِقٍ؛ فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْبَشَرِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا إِلَى التَّرَقِّي فِي أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ فِي حَقِّ بِلْقِيسَ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمْلِ:٢٣] أَيْ: مِمَّا يُؤْتَى مِثْلُهَا مِنَ الْمُلُوكِ، وَهَكَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ يَسَّرَ اللهُ لَهُ الْأَسْبَابَ، أَيْ: الطُّرُقَ وَالْوَسَائِلَ إِلَى فَتْحِ الْأَقَالِيمِ وَالرَّسَاتِيقِ وَالْبِلَادِ وَالْأَرَاضِي وَكَسْرِ الْأَعْدَاءِ، وَكَبْتِ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَإِذْلَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ. قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبَبًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِي (الْمُخْتَارَةِ) لِلْحَافِظِ الضِّيَاءِ الْمُقَدِّسِيِّ، مِنْ طَرِيقِ قُتَيْبَةَ، عَنْ أَبِي عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ حِمَازٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ: كَيْفَ بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ؟ فَقَالَ سُبْحَانَ اللهِ سَخَّرَ لَهُ السَّحَابَ، وَقَدَّرَ لَهُ الْأَسْبَابَ، وَبَسَطَ لَهُ الْيَدَ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٨٩-٩١].

يَقُولُ: ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِهَا، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُمْ وَغَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ، وَأَمْتِعَتَهُمْ وَاسْتَخْدَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ مَعَ جُيُوشِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْمُتَاخِمِ لَهُمْ. وَذُكِرَ فِي أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ عَاشَ أَلْفًا وَسِتَّمِائَةِ سَنَةٍ يَجُوبُ الْأَرْضَ طُولَهَا وَالْعَرْضَ حَتَّى بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ. وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أَيْ أُمَّةٍ ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يُكِنُّهُمْ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ وَتَسْتُرُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا حُمْرًا قِصَارًا، مَسَاكِنُهُمُ الْغِيرَانُ، أَكْثَرُ مَعِيشَتِهِمْ مِنَ السَّمَكِ.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ، سَمِعْتُ الْحَسَنَ وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قَالَ: إِنَّ أَرْضَهُمْ لَا تَحْمِلُ الْبِنَاءَ فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ تَغَوَّرُوا فِي الْمِيَاهِ، فَإِذَا غَرَبَتْ خَرَجُوا يَتَرَاعَوْنَ كَمَا تَرْعَى الْبَهَائِمُ. قَالَ الْحَسَنُ: هَذَا حَدِيثُ سَمُرَةَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ بِأَرْضٍ لَا تُنْبِتُ لَهُمْ شَيْئًا، فَهُمْ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا فِي أَسْرَابٍ، حَتَّى إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ خَرَجُوا إِلَى حُرُوثِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ.

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ لَهُمْ أَكْنَانٌ، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ طَلَعَتْ

عَلَيْهِمْ، فَلِأَحَدِهِمْ أُذُنَانِ يَفْتَرِشُ إِحْدَاهُمَا وَيَلْبِسُ الْأُخْرَى.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قَالَ: هُمُ الزِّنْجُ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قَالَ: لَمْ يَبْنُوا فِيهَا بِنَاءً قَطُّ، وَلَمْ يُبْنَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِنَاءٌ قَطُّ، كَانُوا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا أَسْرَابًا لَهُمْ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، أَوْ دَخَلُوا الْبَحْرَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَرْضَهُمْ لَيْسَ فِيهَا جَبَلٌ، جَاءَهُمْ جَيْشٌ مَرَّةً فَقَالَ لَهُمْ أَهْلُهَا: لَا تَطْلُعَنَّ عَلَيْكُمُ الشَّمْسُ وَأَنْتُمْ بِهَا. قَالُوا: لَا نَبْرَحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، مَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟ قَالُوا: هَذِهِ جِيَفُ جَيْشٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ هَاهُنَا فَمَاتُوا. قَالَ: فَذَهَبُوا هَارِبِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ: عِلْمًا، أَيْ: نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٢-٩٦].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أَيْ: ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثَغْرَةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عَلَى بِلَادِ التُّرْكِ، فَيَعِيثُونَ فِيهِمْ فَسَادًا، وَيُهْلِكُونَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ؟ فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، فَيُقَالُ: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**».

وَقَدْ حَكَى النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ: أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خُلِقُوا مِنْ مَنِيٍّ خَرَجَ مِنْ آدَمَ فَاخْتَلَطَ بِالتُّرَابِ، فَخُلِقُوا مِنْ ذَلِكَ فَعَلَى هَذَا يَكُونُونَ مَخْلُوقِينَ مِنْ آدَمَ، وَلَيْسُوا مِنْ حَوَّاءَ. وَهَذَا قَوْلٌ غَرِيبٌ جِدًّا، [ثُمَّ] لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ لَا مِنْ عَقْلٍ وَلَا [مِنْ] نَقْلٍ، وَلَا يَجُوزُ الِاعْتِمَادُ هَاهُنَا عَلَى مَا يَحْكِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُفْتَعَلَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، عَنْ سَمُرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَلَدَ نُوحٌ ثَلَاثَةً: سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافِثُ أَبُو التُّرْكِ». قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هَؤُلَاءِ مِنْ نَسْلِ يَافِثَ أَبِي التُّرْكِ، قَالَ: إِنَّمَا سُمُّوا هَؤُلَاءِ تُرْكًا؛ لِأَنَّهُمْ تُرِكُوا مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَإِلَّا فَهُمْ أَقْرِبَاءُ أُولَئِكَ، وَلَكِنْ كَانَ فِي أُولَئِكَ بَغْيٌ وَفَسَادٌ وَجَرَاءَةٌ. وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ هَاهُنَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَثَرًا طَوِيلًا عَجِيبًا فِي سَيْرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَبِنَائِهِ السَّدَّ، وَكَيْفِيَّةِ مَا جَرَى لَهُ، وَفِيهِ طُولٌ وَغَرَابَةٌ وَنَكَارَةٌ فِي أَشْكَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، وَطُولِهِمْ وَقِصَرِ بَعْضِهِمْ، وَآذَانِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَحَادِيثَ غَرِيبَةً فِي ذَلِكَ لَا تَصِحُّ أَسَانِيدُهَا، وَالله أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أَيْ: لِاسْتِعْجَامِ كَلَامِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ النَّاسِ.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَجْرًا عَظِيمًا، يَعْنِي أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَالًا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ، حَتَّى يَجْعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. فَقَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعِفَّةٍ وَدِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ وَقَصْدٍ لِلْخَيْرِ: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أَيْ: إِنَّ الَّذِي أَعْطَانِي الله مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ خَيْرٌ لِي مِنَ الَّذِي تَجْمَعُونَهُ، كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل:٣٦] وَهَكَذَا قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي تَبْذُلُونَهُ، وَلَكِنْ سَاعِدُونِي(بِقُوَّةٍ) أَيْ:

بِعَمَلِكُمْ وَآلَاتِ الْبِنَاءِ، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ وَالزُّبَرُ: جَمْعُ زُبْرَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنْهُ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ. وَهِيَ كَاللَّبِنَةِ، يُقَالُ: كُلُّ لَبِنَةٍ [زِنَةُ] قِنْطَارٍ بِالدِّمَشْقِيِّ، أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أَيْ: وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّى إِذَا حَاذَى بِهِ رُءُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا. وَاخْتَلَفُوا فِي مِسَاحَةِ عَرْضِهِ وَطُولِهِ عَلَى أَقْوَالٍ. ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أَيْ: أَجَّجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّهُ نَارًا، ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: هُوَ النُّحَاسُ. وَزَادَ بَعْضُهُمْ: الْمُذَابُ. وَيَسْتَشْهِدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ:١٢]، وَلِهَذَا يُشَبَّهُ بِالْبُرْدِ الْمُحَبَّرِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْتَ سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، قَالَ: «انْعَتْهُ لِي» قَالَ: كَالْبُرْدِ الْمُحَبَّرِ، طَرِيقَةٌ سَوْدَاءُ. وَطَرِيقَةٌ حَمْرَاءُ. قَالَ: «قَدْ رَأَيْتُهُ». هَذَا حَدِيثٌ مُرْسَلٌ.

وَقَدْ بَعَثَ الْخَلِيفَةُ الْوَاثِقُ فِي دَوْلَتِهِ بَعْضَ أُمَرَائِهِ، وَوَجَّهَ مَعَهُ جَيْشًا سِرِّيَّةً، لِيَنْظُرُوا إِلَى السَّدِّ وَيُعَايِنُوهُ وَيَنْعَتُوهُ لَهُ إِذَا رَجَعُوا. فَتَوَصَّلُوا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ، وَمِنْ مُلْكٍ إِلَى مُلْكٍ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَيْهِ، وَرَأَوْا بِنَاءَهُ مِنَ الْحَدِيدِ وَمِنَ النُّحَاسِ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهِ بَابًا عَظِيمًا، وَعَلَيْهِ أَقْفَالٌ عَظِيمَةٌ، وَرَأَوْا بَقِيَّةَ اللَّبِنِ وَالْعَمَلِ

فِي بُرْجٍ هُنَاكَ. وَأَنَّ عِنْدَهُ حَرَسًا مِنَ الْمُلُوكِ الْمُتَاخِمَةِ لَهُ، وَأَنَّهُ مُنِيفٌ عَالٍ، شَاهِقٌ، لَا يُسْتَطَاعُ وَلَا مَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَكَانَتْ غَيْبَتُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ، وَشَاهَدُوا أَهْوَالًا وَعَجَائِبَ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَـرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٧-٩٩].

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا فَوْقَ هَذَا السَّدِّ وَلَا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِهِ مِنْ أَسْفَلِهِ. وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسْهَلَ مِنْ نَقْبِهِ قَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ فَقَالَ: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَـرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ، وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ.

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا رُوحٌ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو رَافِعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَّغَتْ مُدَّتُهُمْ وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ. قَالَ**

الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ. وَيَسْتَثْنِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا هَيْئَةُ الدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ. فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا».

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ، وَتَشْكُرُ شُكْرًا مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ».

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ حَسَنٍ - هُوَ ابْنُ مُوسَى الْأَشْيَبُ - عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، عَنْ أَزْهَرَ بْنِ مَرْوَانَ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: حَدَّثَ رَافِعٌ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَوَانَةَ، عَنْ قَتَادَةَ. ثُمَّ قَالَ: غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَهَذَا إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ، وَلَكِنْ فِي رَفْعِهِ نَكَارَةٌ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ ارْتِقَائِهِ وَلَا مِنْ نَقْبِهِ، لِإِحْكَامِ بِنَائِهِ وَصَلَابَتِهِ وَشِدَّتِهِ. وَلَكِنْ هَذَا قَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ: أَنَّهُمْ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ يَأْتُونَهُ فَيَلْحَسُونَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَيَقُولُونَ: غَدًا نَفْتَحُهُ. فَيَأْتُونَ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ عَادَ كَمَا كَانَ، فَيَلْحَسُونَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَيَقُولُونَ كَذَلِكَ، وَيُصْبِحُونَ وَهُوَ كَمَا كَانَ، فَيَلْحَسُونَهُ وَيَقُولُونَ: غَدًا نَفْتَحُهُ. وَيُلْهَمُونَ أَنْ يَقُولُوا: «إِنْ شَاءَ اللهُ»، فَيُصْبِحُونَ وَهُوَ كَمَا فَارَقُوهُ، فَيَفْتَحُونَهُ. وَهَذَا مُتَّجَهٌ، وَلَعَلَّ أَبَا هُرَيْرَةَ تَلَقَّاهُ مِنْ

كَعْبٍ. فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يُجَالِسُهُ وَيُحَدِّثُهُ، فَحَدَّثَ بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَتَوَهَّمَ بَعْضُ الرُّوَاةِ عَنْهُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ، فَرَفَعَهُ، وَالله أَعْلَمُ.

وَيُؤَكِّدُ مَا قُلْنَاهُ - مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ نَقْبِهِ وَلَا نَقْبِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمِنْ نَكَارَةِ هَذَا الْمَرْفُوعِ - قَوْلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ [زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ أُمِّهَا أُمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ] زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ سُفْيَانُ أَرْبَعَ نِسْوَةٍ - قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْمِهِ. وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا». وَحَلَّقَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ».

هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى إِخْرَاجِهِ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، وَلَكِنْ سَقَطَ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ ذِكْرُ حَبِيبَةَ، وَأَثْبَتَهَا مُسْلِمٌ. وَفِيهِ أَشْيَاءُ عَزِيزَةٌ نَادِرَةٌ قَلِيلَةُ الْوُقُوعِ فِي صِنَاعَةِ الْإِسْنَادِ، مِنْهَا رِوَايَةُ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ، وَهُمَا تَابِعِيَّانِ وَمِنْهَا اجْتِمَاعُ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ فِي سَنَدِهِ، كُلُّهُنَّ يَرْوِي بِعَضُّهُنَّ عَنْ بَعْضٍ. ثُمَّ كُلٌّ مِنْهُنَّ صَحَابِيَّةٌ، ثُمَّ ثِنْتَانِ رَبِيبَتَانِ وَثِنْتَانِ زَوْجَتَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا، فَقَالَ الْبَزَّارُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا» وَعَقَدَ التِّسْعِينَ. وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ وُهَيْبٍ، بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أَيْ: لَمَّا بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أَيْ: بِالنَّاسِ حَيْثُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَائِلًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أَيْ: إِذَا اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أَيْ: سَاوَاهُ بِالْأَرْضِ. تَقُولُ الْعَرَبُ: نَاقَةٌ دَكَّاءُ: إِذَا كَانَ ظَهْرُهَا مُسْتَوِيًا لَا سَنَامَ لَهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣] أَيْ: مُسَاوِيًا لِلْأَرْضِ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قَالَ: طَرِيقًا كَمَا كَانَ.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أَيْ: كَائِنًا لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أَيِ: النَّاسَ يَوْمَئِذَ أَيْ يَوْمَ يُدَكُّ هَذَا السَّدُّ وَيَخْرُجُ هَؤُلَاءِ فَيَمُوجُونَ فِي النَّاسِ وَيُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَيُتْلِفُونَ أَشْيَاءَهُمْ، وَهَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قَالَ: ذَاكَ حِينَ يَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ. وَهَذَا كُلُّهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبَعْدَ الدَّجَّالِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]، وَهَكَذَا قَالَ

هَاهُنَا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ قَالَ: هَذَا أَوَّلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْتَلِطُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قَالَ: إِذَا مَاجَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ قَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ عِلْمَ هَذَا الْأَمْرِ. فَيَظْعَنُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَجِدُ الْمَلَائِكَةَ قَدْ بَطَّنُوا الْأَرْضَ، ثُمَّ يَظْعَنُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَيَجِدُ الْمَلَائِكَةَ بَطَّنُوا الْأَرْضَ فَيَقُولُ: «مَا مِنْ مَحِيصٍ». ثُمَّ يَظْعَنُ يَمِينًا وَشِمَالًا إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ فَيَجِدُ الْمَلَائِكَةَ بَطَّنُوا الْأَرْضَ فَيَقُولُ: «مَا مِنْ مَحِيصٍ» فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ عُرِضَ لَهُ طَرِيقٌ كَالشِّرَاكِ، فَأَخَذَ عَلَيْهِ هُوَ وَذُرِّيَّتُهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَيْهِ إِذْ هَجَمُوا عَلَى النَّارِ، فَأَخْرَجَ اللهُ خَازِنًا مِنْ خُزَّانِ النَّارِ، فَقَالَ: يَا إِبْلِيسُ، أَلَمْ تَكُنْ لَكَ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَ رَبِّكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ فِي الْجِنَانِ؟! فَيَقُولُ: لَيْسَ هَذَا يَوْمَ عِتَابٍ، لَوْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيَّ فَرِيضَةً لَعَبَدْتُهُ فِيهَا عِبَادَةً لَمْ يَعْبُدْهُ مِثْلَهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ. فَيَقُولُ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكَ فَرِيضَةً. فَيَقُولُ: مَا هِيَ؟ فَيَقُولُ: يَأْمُرُكَ أَنْ تَدْخُلَ النَّارَ. فَيَتَلَكَّأُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ بِهِ وَبِذُرِّيَّتِهِ بِجَنَاحَيْهِ فَيَقْذِفُهُمْ فِي النَّارِ. فَتَزْفِرُ النَّارُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ

وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ يَعْقُوبَ الْقَمِّيِّ بِهِ. رَوَاهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ يَعْقُوبَ، عَنْ هَارُونَ عَنْ عَنْتَرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قَالَ: الْجِنُّ وَالْإِنْسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ.

وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، وَلَوْ أُرْسِلُوا لَأَفْسَدُوا عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ، وَلَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِدًا، وَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ ثَلَاثَ أُمَمٍ: تَاوِيلَ، وَتَايَسَ وَمَنْسَكَ**». هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ بَلْ مُنْكَرٌ ضَعِيفٌ.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَوْسِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَهُمْ نِسَاءٌ، يُجَامِعُونَ مَا شَاءُوا، وَشَجَرٌ يُلَقِّحُونَ مَا شَاءُوا، وَلَا يَمُوتُ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِدًا**».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ» فِيهِ وَالَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ بِطُولِهِ، وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ.

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَطِيَّةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «كَيْفَ أَنْعَمُ، وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ». قَالُوا: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أَيْ: أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٠-١٠٢].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ، أَيْ: يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا، لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ أَيْ: تَعَامَوْا وَتَغَافَلُوا وَتَصَامُّوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أَيْ: لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أَيِ: اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصِحُّ لَهُمْ ذَلِكَ، وَيَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ؟ ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلًا.

الدروس والعبر من القصة:

١- تقرير نبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ هذا جواب آخر أسئلة قريش الثلاثة قرأه عليهم قرآنًا موحى به إليه [أيسر التفاسير].

٢- قول ذو القرنين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ يجب أن يكون مادة دستورية يحكم به الأفراد والجماعات لصدقها وإجابيتها وموافقتها لحكم الله تعالى ورضاه، ومن الأسف أن يعكس هذا القول السديد والحكم الرشيد فيصبح أهل الظلم مكرمين لدى الحكومات، وأهل الإيمان والإستقامة مهانين.

[المصدر السابق]

٣- بيان وجود أمم بدائية إلى عهد ما بعد ذي القرنين لا يلبسون ثيابًا ولا يسكنون سوى الكهوف والمغارات ويوجد في البلاد الكينية إلى الآن قبائل لا يرتدون الثياب، وإنما يضعون على فروجهم خيوط وسيور لا غير.

[المصدر السابق]

٤- تقرير أن هذا الملك الصالح قد ملك الأرض فهو أحد أربعة حكموا الناس شرقًا وغربًا [المصدر السابق].

٥- الأخذ بالأسباب مع اعتماد القلب على الله، كما في هذه القصة، وقد أخذ بالأسباب سيد المتوكلين على الله وهو رسول الله ﷺ كما قصة الهجرة من اتخاذ دليل والإستخفاء في الغار ونوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراشه ومشى عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بالأغنام خلفهم حتى لا يعرف أين مشو وحمل أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما الطعام والشراب لهما وغير ذلك، ليعلمنا الله تعالى الأخذ بالأسباب، ويكون الإعتماد بالقلب بالكلية على الله تعالى، كما في قصة الهجرة عندما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يا رسول الله لو أبصر أحدهم خلفه لرآنا فقال رسول الله ﷺ ما ظنك يا أبي بكر باثنين ثالثهما الله فأنزل الله تعالى الآية: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ١٠].

وقال العلماء القدح في الأسباب قدح في السنة والقدح في التوكل قدح في العقيدة.

٧- الملك الصالح قدوته سليمان عليه السلام كما قال تعالى عن ذي القرنين: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٤-٩٥].

وقال تعالى عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في قصة ملكة بلقيس عندما أتى له بملكهم قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال تعالى عن سيدنا سليمان أيضًا ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

٨- ذكر الله تعالى بعض أشراط الساعه فقد ذكر الله تعالى في القصة يأجوج ومأجوج.

***

قصة قارون

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾، قَالَ: كَانَ ابْنَ عَمِّهِ. وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَعَبْدُ الله بْنُ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَسِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، وقَتَادَةُ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُ كَانَ ابْنَ عَمِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ قَارُونُ بْنُ يَصْهَرَ بْنِ قَاهِثَ، وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهِثَ.

وَزَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ قَارُونَ كَانَ عَمَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ ابْنَ عَمِّهِ، وَالله أَعْلَمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ: كُنَّا نُحَدِّثُ أَنَّهُ كَانَ ابْنَ عَمِّ مُوسَى، وَكَانَ يُسَمَّى الْمُنَوَّرَ لِحُسْنِ صَوْتِهِ بِالتَّوْرَاةِ، وَلَكِنَّ عَدُوَّ الله نَافَقَ كَمَا نَافَقَ السَّامِرِيُّ، فَأَهْلَكَهُ الْبَغْيُ لِكَثْرَةِ مَالِهِ.

وَقَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: زَادَ فِي ثِيَابِهِ شِبْرًا طُولًا تَرَفُّعًا عَلَى قَوْمِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أَيْ: لَيُثْقِلُ حَمْلُهَا الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ لِكَثْرَتِهَا.

قَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ خَيْثَمَةَ: كَانَتْ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الْأُصْبُعِ، كُلُّ مِفْتَاحٍ عَلَى خِزَانَةٍ عَلَى حِدَّتِهِ، فَإِذَا رَكِبَ حُمِلَتْ عَلَى سِتِّينَ بَغْلًا أَغَرَّ مُحَجَّلًا. وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أَيْ: وَعَظَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحُ قَوْمِهِ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ: لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ، يَعْنُونَ: لَا تَبْطَرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمِرِحِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ، الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيِ: اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ وَالنِّعْمَةِ الطَّائِلَةِ، فِي طَاعَةِ رَبِّكَ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ، الَّتِي يَحْصُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: مِمَّا أَبَاحَ اللهُ فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاكِحِ، فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: أَحْسِنْ إِلَى خَلْقِهِ كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: لَا تَكُنْ هِمَّتُكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ الْأَرْضَ، وَتُسِيءَ إِلَى خَلْقِ الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَارُونَ لِقَوْمِهِ، حِينَ نَصَحُوهُ وَأَرْشَدُوهُ إِلَى الْخَيْرِ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أَيْ: أَنَا لَا أَفْتَقِرُ إِلَى مَا تَقُولُونَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعِلْمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ، وَلِمَحَبَّتِهِ لِي فَتَقْدِيرُهُ: إِنَّمَا أُعْطِيتُهُ لِعِلْمِ اللهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] أَيْ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ بِي، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠] أَيْ: هَذَا أَسْتَحِقُّهُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ أَرَادَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أَيْ: إِنَّهُ كَانَ يُعَانِي عِلْمَ الْكِيمْيَاءِ: وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ; لِأَنَّ عِلْمَ الْكِيمْيَاءِ فِي نَفْسِهِ عِلْمٌ بَاطِلٌ; لِأَنَّ قَلْبَ الْأَعْيَانِ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَيْهَا إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، قَالَ الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ

اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً» [صحيح البخاري]، وَهَذَا وَرَدَ فِي الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللهِ فِي مُجَرَّدِ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الشَّكْلِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ يُحِيلُ مَاهِيَّةَ هَذِهِ الذَّاتِ إِلَى مَاهِيَّةِ ذَاتٍ أُخْرَى، هَذَا زُورٌ وَمُحَالٌ، وَجَهْلٌ وَضَلَالٌ. وَإِنَّمَا يَقْدِرُونَ عَلَى الصَّبْغِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ، وَهُوَ كَذِبٌ وَزَغَلٌ وَتَمْوِيهٌ، وَتَرْوِيجٌ أَنَّهُ صَحِيحٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ قَطْعًا لَا مَحَالَةَ، وَلَمْ يَثْبُتْ بِطَرِيقٍ شَرْعِيٍّ أَنَّهُ صَحَّ مَعَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَعَانَاهَا هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ الْفَسَقَةُ الْأَفَّاكُونَ فَأَمَّا مَا يُجْرِيهِ اللهُ تَعَالَى مِنْ خَرْقِ الْعَوَائِدِ عَلَى يَدَيْ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَلْبِ بَعْضِ الْأَعْيَانِ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ مُسْلِمٌ، وَلَا يَرُدُّهُ مُؤْمِنٌ، وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الصِّنَاعَاتِ وَإِنَّمَا هَذَا عَنْ مَشِيئَةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَاخْتِيَارِهِ وَفِعْلِهِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ الْمِصْرِيِّ، رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّهُ سَأَلَهُ سَائِلٌ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطِيهِ، وَرَأَى ضَرُورَتَهُ، فَأَخَذَ حَصَاةً مِنَ الْأَرْضِ فَأَجَالَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ أَلْقَاهَا إِلَى ذَلِكَ السَّائِلِ فَإِذَا هِيَ ذَهَبٌ أَحْمَرُ. وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا يَطُولُ ذِكْرُهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ قَارُونَ كَانَ يَعْلَمُ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ، فَدَعَا اللهَ بِهِ، فَتَمَوَّلَ بِسَبَبِهِ، وَالصَّحِيحُ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ; وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى - رَادًّا عَلَيْهِ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنَ اعْتِنَاءِ اللهِ بِهِ فِيمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْمَالِ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ

﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ: قَدْ كَانَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةٍ مِنَّا لَهُ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ مَعَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ: لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ.

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾: عَلَى خَيْرٍ عِنْدِي.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَلَى عِلْمٍ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ.

وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قَالَ: لَوْلَا رِضَا اللهِ عَنِّي، وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ، وَقَرَأَ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ لَمَا أُعْطِيَ.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ: إِنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَجَمُّلٍ بَاهِرٍ، مِنْ مَرَاكِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ، فَلَمَّا رَآهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَمِيلُ إِلَى زُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلُ

الَّذِي أُعْطِيَ، قَالُوا: ﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ أَيْ: ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا. فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ قَالُوا لَهُمْ: ﴿ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ أَيْ: جَزَاءُ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ.

كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾: قَالَ السُّدِّيُّ: وَمَا يُلَقَّى الْجَنَّةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ. كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَا يُلَقَّى هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، الرَّاغِبُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَكَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مَقْطُوعًا مِنْ كَلَامِ أُولَئِكَ، وَجَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِخْبَارِهِ بِذَلِكَ.

﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٨١-٨٢].

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِيَالَ قَارُونَ فِي زِينَتِهِ، وَفَخْرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَغْيَهُ عَلَيْهِمْ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ - عِنْدَ الْبُخَارِيِّ مِنْ

حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ - أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوَهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَبُو الْمُغِيرَةِ الْقَاصُّ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ الله الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ لَيَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ فَاخْتَالَ فِيهِمَا، فَأَمَرَ الله الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ - شَكَّرُ - فِي كِتَابِ الْعَجَائِبِ الْغَرِيبَةِ بِسَنَدِهِ عَنْ نَوْفَلِ بْنِ مُسَاحِقٍ قَالَ: رَأَيْتُ شَابًّا فِي مَسْجِدِ نَجْرَانَ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَتَعَجَّبُ مِنْ طُولِهِ وَتَمَامِهِ وَجَمَالِهِ، فَقَالَ: مَا لَكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ؟ فَقُلْتُ: أَعْجَبُ مِنْ جَمَالِكَ وَكَمَالِكَ. فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنِّي. قَالَ: فَمَا زَالَ يَنْقُصُ وَيَنْقُصُ حَتَّى صَارَ بِطُولِ الشِّبْرِ، فَأَخَذَهُ بَعْضُ قَرَابَتِهِ فِي كُمِّهِ وَذَهَبَ.

وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ هَلَاكَ قَارُونَ كَانَ عَنْ دَعْوَةِ نَبِيِّ الله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِهِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيِّ: أَنَّ قَارُونَ أَعْطَى امْرَأَةً بَغِيًّا مَالًا عَلَى أَنْ تَبْهَتَ مُوسَى بِحَضْرَةِ الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ قَائِمٌ فِيهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ كِتَابَ الله، فَتَقُولُ: يَا مُوسَى، إِنَّكَ فَعَلْتَ بِي كَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَالَتْ فِي الْمَلَأِ ذَلِكَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أُرْعِدَ مِنَ الْفَرَقِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكِ بِالله الَّذِي فَرَقَ الْبَحْرَ، وَأَنْجَاكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَفَعَلَ كَذَا وَفَعَلَ كَذَا، لَمَا أَخْبَرْتِنِي بِالَّذِي حَمَلَكِ عَلَى مَا قُلْتِ؟ فَقَالَتْ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتِنِي فَإِنَّ قَارُونَ أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا، عَلَى أَنْ أَقُولَ لَكَ، وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَّ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَّ مُوسَى لله عَزَّوَجَلَّ سَاجِدًا، وَسَأَلَ اللهَّ فِي قَارُونَ. فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تُطِيعَكَ فِيهِ، فَأَمَرَ مُوسَى الْأَرْضَ أَنْ تَبْتَلِعَهُ وَدَارَهُ فَكَانَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ قَارُونَ لَمَّا خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ تِلْكَ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى الْبِغَالِ الشُّهْبِ، وَعَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ الثِّيَابُ الْأُرْجُوَانُ الصِّبْغَةِ، فَمَرَّ فِي جَحْفَلِهِ ذَلِكَ عَلَى مَجْلِسِ نَبِيِّ الله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ الله. فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ قَارُونَ انْصَرَفَتْ وُجُوهُ النَّاسِ حَوْلَهُ، يَنْظُرُونَ إِلَى مَا هُوَ فِيهِ. فَدَعَاهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: يَا مُوسَى، أَمَا لَئِنْ كُنْتَ فُضِّلْتَ عَلَيَّ بِالنُّبُوَّةِ، فَلَقَدْ فُضِّلْتُ عَلَيْكَ بِالدُّنْيَا، وَلَئِنْ شِئْتَ لَتَخْرُجَنَّ، فَلْتَدْعُوَنَّ عَلَيَّ وَأَدْعُو عَلَيْكَ. فَخَرَجَ وَخَرَجَ قَارُونُ فِي قَوْمِهِ، فَقَالَ مُوسَى:

تَدْعُو أَوْ أَدْعُو أَنَا؟ قَالَ: بَلْ أَنَا أَدْعُو. فَدَعَا قَارُونُ فَلَمْ يُجَبْ لَهُ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى: أَدْعُو؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ مُوسَى: اللهمَّ مُرِ الْأَرْضَ أَنْ تُطِيعَنِي الْيَوْمَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ، فَقَالَ مُوسَى: يَا أَرْضُ، خُذِيهِمْ. فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ. ثُمَّ قَالَ: خُذِيهِمْ. فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى رُكَبِهِمْ، ثُمَّ إِلَى مَنَاكِبِهِمْ. ثُمَّ قَالَ: أَقْبِلِي بِكُنُوزِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. قَالَ: فَأَقْبَلَتْ بِهَا حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا. ثُمَّ أَشَارَ مُوسَى بِيَدِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بَنِي لَاوَى فَاسْتَوَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: خُسِفَ بِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُخْسَفُ بِهِمْ كُلَّ يَوْمٍ قَامَةٌ، فَهُمْ يَتَجَلْجَلُونَ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ ذُكِرَ هَاهُنَا إِسْرَائِيلِيَّاتٌ غَرِيبَةٌ أَضْرَبْنَا عَنْهَا صَفْحًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أَيْ: مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا جَمَعَهُ، وَلَا خَدَمُهُ وَ لَاحَشَمُهُ. وَلَا دَفَعُوا عَنْهُ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُنْتَصِرًا لِنَفْسِهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ لَا مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا مَنْ غَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أَيِ: الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَتِهِ قَالُوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فَلَمَّا خُسِفَ بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ:

لَيْسَ الْمَالُ بِدَالٍّ عَلَى رِضَا الله عَنْ صَاحِبِهِ وَعَنْ عِبَادِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُضَيِّقُ وَيُوَسِّعُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ. وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «**إِنَّ اللَّهَ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَّمَ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ**» [ضعفه الألباني].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أَيْ: لَوْلَا لُطْفُ الله بِنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا، كَمَا خَسَفَ بِهِ، لِأَنَّا وَدِدْنَا أَنْ نَكُونَ مَثَلَهُ.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يَعْنُونَ: أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُ عِنْدَ الله، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهَا: «وَيْلَكَ اعْلَمْ أَنَّ»، وَلَكِنْ خُفِّفَتْ فَقِيلَ: «وَيْكَ»، وَدَلَّ فَتْحُ «أَنَّ» عَلَى حَذْفِ «اعْلَمْ». وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعَّفَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَوِيٌّ، وَلَا يُشْكِلُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا كِتَابَتُهَا فِي الْمَصَاحِفِ مُتَّصِلَةً «وَيْكَأَنَّ». وَالْكِتَابَةُ أَمْرٌ وَضْعِيٌّ اصْطِلَاحِيٌّ، وَالْمَرْجِعُ إِلَى اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ، وَالله أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهَا: وَيْكَأَنَّ، أَيْ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ. قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهَا «وَيْ كَأَنَّ»، فَفَصَلَهَا وَجَعَلَ حَرْفَ «وَيْ» لِلتَّعَجُّبِ أَوْ لِلتَّنْبِيهِ، وَ «كَأَنَّ» بِمَعْنَى «أَظُنُّ وَأَحْسَبُ».

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَأَقْوَى الْأَقْوَالِ فِي هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ: إِنَّهَا بِمَعْنَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٣-٨٤]. يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، أَيْ: تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ اللهِ وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ، وَلَا فَسَادًا فِيهِمْ. كَمَا قَالَ عِكْرِمَةُ: الْعُلُوُّ: التَّجَبُّرُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْعُلُوُّ: الْبَغْيُ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ: الْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ: التَّكَبُّرُ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَالْفَسَادُ: أَخْذُ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عَمَلًا بِالْمَعَاصِي.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَشْعَثَ السَّمَّانِ، عَنْ أَبِي سَلَّامٍ الْأَعْرَجِ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ الْفَخْرَ وَالتَّطَاوُلَ عَلَى غَيْرِهِ; فَإِنَّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّجَمُّلِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً، أَفَمِنَ الْكِبْرِ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «لَا إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ».

وَقَالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أَيْ: ثَوَابُ الله خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ، فَكَيْفَ وَالله يُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً فَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ.

الدروس والعبر من القصة:

١- **أعظم فرح للمؤمن في الدنيا والأخرة:** فالمؤمن يفرح بطاعة ربه كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ**» [رواه الترمذي وصححه الألباني].

والمؤمن يفرح بالإسلام والقرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال العلامة الجزائري: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ ما هداهم إليه من الإيمان والعمل الصالح، واجتناب الشرك والمعاصي ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أي بالإيمان والعمل الصالح بعد العلم والتقوى فليسروا ويستبشروا ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من المال والحطام الفاني [أيسر التفسير].

ويفرح المؤمن عند الموت عندما تأتيه البشريات من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ويوم القيامة يفرح المؤمنون بما أتاهم الله من الثواب العظيم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٢-١٤].

٢- إنما أوتيته على علم عندي كلمة أكثر الأغنياء:

ولكن بإسلوب أخر مثل أنا رجل عصامي، أنا بنيت نفسي بنفسي، أنا الذي عملت كل ده، أنا بدأت من الصفر حتى وصلت لهذا، هذا جهدي وتعبي وشقايا، وهذا بعقلي وذكائي، وغيرها من كلمات التى لم تكن سبب

في شكر الله تعالى، فالرد على هؤلاء كما من رجل تعب ونصب في الحياة ولم يوصل إلى ما وصلت وكما من رجل هو أذكى منك ولم يصل إلى ما وصلت إليه، ولكنه رزق الله تعالى وهو فضل الله تعالى ابتداءًا وانتهاءًا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وليس كل من أراد الدنيا نالها ولكن لمن أراد الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، ولكن من أراد الأخرة له وضع أخر قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وكل من أراد الدنيا وترك الأخرة عوقب في الدنيا والأخرة قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال رسول الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ** - [**وَفِي رِوَايَةٍ: تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**] - **تَعِسَ وَانْتَكَسَ**» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ الله عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ الله لَهُ أَمْرَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].

وقال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ تَشَاعَبَتْ بِهِ الْهُمُومُ لَمْ يُبَالِ الله فِي أَيِّ أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا هَلَكَ**» [صحيح الجامع].

٣- **اغترار أهل الدنيا بالأغنياء**: كما في القصة فكثير من الناس لا ينظرون إلى أصحاب الأموال والتجارات والعقارات والمناصب ولا حول ولا قوة إلا بالله وهذا من جهلهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة لا تنظري إلى من هو فوقك وانظري إلى من هو أدنى حتى لا تذري نعمة الله**» [صحيح الجامع].

فمن نظر إلى ما من هو أعلى منه هو في الدنيا لا يرى نعمة الله عليه ولكن لو نظر إلى ما هو أسفل منه عرف نعمة الله تعالى عليه فإذا كنت فقير فغيرك ليس له مأوى وغيرك مريض وغيرك محروم من نعم الله، الله أنعم عليك بها.

٤- **فضل العلم والعلماء**:

كما في القصة فأهل العلم الذى رفعهم عن غيرهم وعرفوا الحق من الباطل ومعرفة الباقي على الفاني كان سببه العلم وهم الذين وعظوا غيرهم

وتذكيرهم بالله والدار الآخرة فأهل العلم هم النجوم للحياة في كل زمان وفي كل مكان.

٥- علو همة المؤمن:

فالمؤمن عالي الهمة ليس له هدف إلا رضا الله تعالى ودخول جنته كما هو في سيرة النبي ﷺ وأصحابه والتابعين والأئمة والعلماء الربانيين ومن صار على هديهم إلى يوم الدين.

قال الحسن البصري: من نافسك في الأخرة نافسه، ومن نافسك في الدنيا فألقيها في نحره.

٦- الكبر سبب لزوال النعيم:

كما في قصة قارون وكما في قصة فرعون والنمرود وكفار قريش واليهود فالذي منعهم من الإيمان بالله تعالى والإنقياد لشرعه هو الكبر.

وسبب هلاك إبليس وطرده من رحمة الله ولعنه ومسخه وخلوده في جهنم هو الكبر كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

٧- التوضع سبب لثبات النعيم:

فكما أن الكبر سبب هلاك العبد في الدنيا والآخرة وكذلك التواضع سبب لنجاة العبد في الدنيا والآخرة وهو من صفات الأنبياء والصالحين وعباد الرحمن.

٨- الخوف من الله تعالى يمنع الأغنياء والوجهاء من الفساد في الأرض.

٩- ثواب الله تعالى لا يناله إلا الصابرون.

***

قصة قوم سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

كَانَتْ سَبَأٌ مُلُوكَ الْيَمَنِ وَأَهْلَهَا، وَكَانَتِ التَّبَابِعَةُ مِنْهُمْ، وَبِلْقِيسُ - صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ - مِنْهُمْ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِبْطَةٍ فِي بِلَادِهِمْ، وَعَيْشِهِمْ وَاتِّسَاعِ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ. وَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِيَ سَبَأٍ، شَذَرَ مَذَرَ، كَمَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ وَبَيَانُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ سَبَأٍ: مَا هُوَ؟ رَجُلٌ أَمِ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ؟ قَالَ: «**بَلْ هُوَ رَجُلٌ، وَلَدَ عَشَرَةً، فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَبِالشَّامِ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ: فَمَذْحِجُ، وَكِنْدَةُ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَحِمْيَرُ. وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ، وَجُذَامُ، وَعَامِلَةُ، وَغَسَّانُ**»، وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ

(الْقَصْدِ وَالْأُمَمِ، بِمَعْرِفَةِ أُصُولِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَعْلَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَذَكَرَ نَحْوَهُ. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حَدَّثَنَا أَبُو جَنَابٍ يَحْيَى بْنُ أَبِي حَيَّةَ الْكَلْبِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ هَانِئِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ فَرْوَةَ بْنِ مُسَيْكٍ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أُقَاتِلُ بِمُقْبِلِ قَوْمِي مُدْبِرَهُمْ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، فَقَاتِلْ بِمُقْبِلِ قَوْمِكَ مُدْبِرَهُمْ**». فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: «**لَا تُقَاتِلْهُمْ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ سَبَأً: أَوَادٍ هُوَ، أَوْ رَجُلٌ، أَوْ مَا هُوَ؟ قَالَ: «**لَا، بَلْ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ، وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ فَتَيَامَنَ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ، تَيَامَنَ الْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَحِمْيَرُ، وَكِنْدَةُ، وَمَذْحِجُ، وَأَنْمَارُ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ: بَجِيلَةُ وَخَثْعَمُ. وَتَشَاءَمَ لَخْمٌ، وَجُذَامٌ، وَعَامِلَةُ، وَغَسَّانُ**».

وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ وَإِنْ كَانَ فِيهِ أَبُو جَنَابَ الْكَلْبِيُّ، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ. لَكِنْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنِ الْعَنْقَزِيِّ، عَنْ أَسْبَاطِ بْنِ نَصْرٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ هَانِئٍ الْمُرَادِيِّ، عَنْ عَمِّهِ أَوْ عَنْ أَبِيهِ - يَشُكُّ أَسْبَاطٌ - قَالَ: قَدِمَ فَرْوَةُ بْنُ مُسَيْكٍ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَذَكَرَهُ.

وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبَلَدِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا الْبَعُوضِ وَلَا الْبَرَاغِيثِ، وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْهَوَامِّ، وَذَلِكَ لِاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ وَصِحَّةِ الْمِزَاجِ وَعِنَايَةِ

اللهِ بِهِمْ، لِيُوَحِّدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أَيْ: مِنْ نَاحِيَتَيِ الْجَبَلَيْنِ وَالْبَلْدَةُ بَيْنَ ذَلِكَ،﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أَيْ: غَفُورٌ لَكُمْ إِنِ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أَيْ: عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ، كَمَا قَالَ هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢- ٢٤].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَبِيًّا.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ نَبِيٍّ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْعَرِمِ الْمِيَاهُ. وَقِيلَ: الْوَادِي. وَقِيلَ: الْجُرَذُ. وَقِيلَ: الْمَاءُ الْغَزِيرُ. فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الِاسْمِ إِلَى صِفَتِهِ، مِثْلَ: (مَسْجِدُ الْجَامِعِ). وَ (سَعِيدُ كُرْزٍ) حَكَى ذَلِكَ السُّهَيْلِيُّ.

وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: الْجُرَذُ: هُوَ الْخَلْدُ، نَقَبَتْ أَسَافِلَهُ حَتَّى إِذَا ضَعُفَ وَوَهَى، وَجَاءَتْ أَيَّامُ السُّيُولِ، صَدَمَ الْمَاءُ الْبِنَاءَ فَسَقَطَ، فَانْسَابَ الْمَاءُ فِي أَسْفَلِ

الْوَادِي، وَخَرُبَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَنَضَبَ الْمَاءُ عَنِ الْأَشْجَارِ الَّتِي فِي الْجَبَلَيْنِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، فَيَبِسَتْ وَتَحَطَّمَتْ، وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَشْجَارُ الْمُثْمِرَةُ الْأَنِيقَةُ النَّضِرَةُ، كَمَا قَالَ اللهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: وَهُوَ الْأَرَاكُ، وَأَكْلَةُ الْبَرِيرِ.

﴿وَأَثْلٍ﴾: قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الطَّرْفَاءُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ شَجَرٌ يُشْبِهُ الطَّرْفَاءَ. وَقِيلَ: هُوَ السَّمُرُ. فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: لَمَّا كَانَ أَجْوَدُ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُبْدَلِ بِهَا هُوَ السِّدْرُ قَالَ: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فَهَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثِّمَارِ النَّضِيجَةِ وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظِّلَالِ الْعَمِيقَةِ وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسِّدْرِ ذِي الشَّوْكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ. وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللهِ، وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أَيْ: عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَلَا يُعَاقَبُ إِلَّا الْكَفُورُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ. لَا يُعَاقَبُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ إِلَّا الْكَفُورُ. وَقَالَ طَاوُسٌ: لَا يُنَاقَشُ إِلَّا الْكَفُورُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنِ ابْنِ خِيرَةَ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَزَاءُ الْمَعْصِيَةِ الْوَهْنُ فِي الْعِبَادَةِ، وَالضِّيقُ فِي الْمَعِيشَةِ، وَالتَّعَسُّرُ فِي اللَّذَّةِ. قِيلَ: وَمَا التَّعَسُّرُ فِي اللَّذَّةِ؟ قَالَ: لَا يُصَادِفُ لَذَّةً حَلَالًا إِلَّا جَاءَهُ مَنْ يُنَغِّصُهُ إِيَّاهَا.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨-١٩].

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْغِبْطَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَالْعَيْشِ الْهَنِيِّ الرَّغِيدِ، وَالْبِلَادِ الرَّخِيَّةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْآمِنَةِ، وَالْقُرَى الْمُتَوَاصِلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ، بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَثِمَارِهَا، بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَلَا مَاءٍ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا، وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى، بِمِقْدَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾، قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: هِيَ قُرًى بِصَنْعَاءَ. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ زَيْدٍ وَغَيْرِهِمْ: يَعْنِي: قُرَى الشَّامِ. يَعْنُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ فِي قُرًى ظَاهِرَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا: بَيْتُ الْمَقْدِسِ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْهُ أَيْضًا: هِيَ قُرًى عَرَبِيَّةٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أَيْ: بَيِّنَةً وَاضِحَةً، يَعْرِفُهَا الْمُسَافِرُونَ، يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ، وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى; وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهَا بِحَسْبَ مَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُونَ إِلَيْهِ، ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أَيِ: الْأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، وَقَرَأَ آخَرُونَ: «بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَطِرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ - كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ - وَأَحَبُّوا مَفَاوِزَ وَمَهَامِهَ يَحْتَاجُونَ فِي قَطْعِهَا إِلَى الزَّادِ وَالرَّوَاحِلِ وَالسَّيْرِ فِي الْحُرُورِ وَالْمَخَاوِفِ، كَمَا طَلَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى أَنْ يُخْرِجَ اللهُ لَهُمْ مِمَّا تَنْبُتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ فِي مَنٍّ وَسَلْوَى وَمَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ مُرْتَفِعَةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهَؤُلَاءِ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ، وَتَبْدِيلِ النِّعْمَةِ وَتَحْوِيلِ الْعَافِيَةِ عُقُوبَةً عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْآثَامِ - لَعِبْرَةً وَدَلَالَةً لِكُلِّ عَبْدٍ صَبَّارٍ عَلَى الْمَصَائِبِ، شَكُورٍ عَلَى النِّعَمِ.

وفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ».

قَالَ عَبْدٌ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ شَيْبَانَ، عَنْ قَتَادَةَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قَالَ: كَانَ مُطَرِّفٌ يَقُولُ: نِعْمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشَّكُورُ، الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢٠-٢١].

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى قِصَّةَ سَبَأٍ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانِ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالِهِمْ مِمَّنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَى، وَخَالَفَ الرَّشَادَ وَالْهُدَى، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَمَّا أَهْبَطَ اللهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَعَهُ حَوَّاءُ، هَبَطَ إِبْلِيسُ فَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنْهُمَا، وَقَالَ: إِذَا أَصَبْتُ مِنَ الْأَبَوَيْنِ مَا أَصَبْتُ، فَالذُّرِّيَّةُ أَضْعَفُ وَأَضْعَفُ. وَكَانَ ذَلِكَ ظَنًّا مِنْ إِبْلِيسَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ إِبْلِيسُ: (لَا أُفَارِقُ ابْنَ آدَمَ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ، أَعِدُهُ وَأُمَنِّيهِ وَأَخْدَعُهُ). فَقَالَ اللهُ: «وَعِزَّتِي لَا أَحْجُبُ عَنْهُ التَّوْبَةَ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ بِالْمَوْتِ، وَلَا يَدْعُونِي إِلَّا أَجَبْتُهُ، وَلَا يَسْأَلُنِي إِلَّا أَعْطَيْتُهُ، وَلَا يَسْتَغْفِرُنِي إِلَّا غَفَرْتُ لَهُ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ مِنْ حُجَّةٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَاللهِ مَا ضَرَبَهُمْ بِعَصًا، وَلَا أَكْرَهَهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَمَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَأَمَانِيَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهَا فَأَجَابُوهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا سَلَّطْنَاهُ عَلَيْهِمْ لِيَظْهَرَ أَمْرُ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَقِيَامِهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ، فَيُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا، مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أَيْ: وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنَ اتِّبَاعِ إِبْلِيسَ، وَبِحِفْظِهِ وَكِلَاءَتِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ.

الدروس والعبر من القصة:

أولا- شكر الله تعالى وتوحيده سبب لثبات النعم:

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثانيًا- الشرك سبب في زوال النعم في الدنيا والعذاب في الدنيا والآخرة كما في القصة.

ثالثًا- ما هي أنواع الشرك: وهو نوعان: شرك أكبر؛ وهو ينافي توحيد الألوهية بالكلية، وشرك أصغر؛ وهو ينافي كماله.

أ ـ الشرك الأكبر:

هو اتخاذ العبد من دون الله نِدًّا يُسوِّيه برب العالمين، كالأولياء وغيرهم؛ يحبه كحب الله، ويخشاه كخشية الله، ويرجوه، ويتوكل عليه، ويرغب فيه، ويطيعه في معصية الله، و يتبعه على غير مرضاة الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

بعض أمثلة الشرك الأكبر في الألوهية

١ ـ دعاء غير الله من الأموات:

وهذا من الشرك الأكبر؛ لأنه صرف للعبادة لغير الله،؛ وهذا شرك المشركين الأوائل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وقال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١)، وقال النبي ﷺ: «**من مات وهو يدعو لله نِدًّا دخل النار**»(٢)، وقال تعالى عن هؤلاء الأموات وغيرهم: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

فيا أيها المسلم: إن هؤلاء الأموات لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فهل ينفعونك أو يضرونك، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٤٩]، فما بالك بالذين هم دون النبي ﷺ، وهو القائل: «**إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ الله**»(٣).

(١) صحيح: أخرجه أبو داود [١٤٧٩]، والترمذي [٢٩٦٩].

(٢) صحيح: أخرجه البخاري [٤٤٩٧].

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي [٢٥١٦]، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده» [٢٧٦٣].

٢ ـ الذبح لغير الله:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣]، والنسك: هو الذبح.

وقال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، والنحر: هو الذبح؛ فكما أنك لا تصلي إلا لله تعالى؛ فلا تذبح إلا لله تعالى.

واعلم أنه لا يجوز أن تذبح في مكان يذبح فيه لغير الله؛ فعن ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نذر رجل على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينحر إبلًا ببوانة، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُ؟» قالوا: لا، قال: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قالوا: لا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»(٢).

٣ ـ النذر لغير الله:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم [٤٤]، و[٤٥] [١٩٧٨].

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود [٣٣١٣]، واللفظ له، وابن ماجة [٢١٣١].

يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩].

فدلت هذه الآيات على أن النذر عبادة لله تعالى، وطالما أنه عبادة لله تعالى؛ فإنه لا يجوز أن يصرف لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِي اللهَ فَلَا يَعْصِهْ»[1].

٤ ـ الإستغاثة بغير الله:

كقول البعض: «**أغثني يا بدوي**» أو: «**أغثني يا دسوقي**»، ونحو هذا، وتكون الاستغاثة بهؤلاء فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢].

واعلم – أخي المسلم – أنه يجوز لك الاستغاثة بالأحياء العالِمين القَادرين على الإغاثة، كالاستعانة بهم فيما يقدرون عليه، قال الله تعالى في قصة نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥][2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري [٦٦٩٦]، و[٦٧٠٠].

(٢) انظر: «شرح الثلاثة أصول»، للشيخ محمد بن صالح العثيمين.

٥ ـ الإستعاذة بغير الله:

قال الله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

أي: كنا نرى لنا فضلًا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها، كما كان عادة العرب في جاهليتها؛ يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيئ يسوؤهم، فلما رأت الجنُّ الإنسَ يعوذون بهم من خوفهم زادوهم رهقًا[(١)].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[(٢)].

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

٦ ـ الاستعانة بغير الله:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[(٣)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير، (٨/ ٢٣٩)، ط دار طيبة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم [٥٤] [٢٧٠٨].

(٣) صحيح: وقد سبق تخريجه ص[٥٥].

٧ ـ الطواف بالقبور:

لأن الطواف عبادة، ولا تكون العبادة إلا لله تعالى، والطواف يكون حول الكعبة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في هذا الشأن آمرًا الحجيج: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، فلا يجوز للمسلم أن يطوف حول القبور ولا غيرها إلا الكعبة؛ لأن الله تعالى نصَّ عليها وخصَّها بالطواف.

ب ـ الشرك الأصغر:

وهو لا يخرج صاحبه من الملة، ولا يجوز الإصرار عليه، ويعد من كبائر الذنوب.

بعض أمثلة الشرك الأصغر في الألوهية

١ ـ يسير الرياء الداخل في تحسين العمل:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً!»[(١)].

(١) حسن بطرقه: أخرجه أحمد في «المسند» [٢٣٦٣٠]، و[٢٣٦٣٦].

٢ ـ الحلف بغير الله:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[١]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللهِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»[٢]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»[٣].

٣- قول: «ما شاء الله وشئت»:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهِ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[٤].

ومثله قول بعض الناس: «لولا الله وأنت»، و«توكلت على الله وعليك»، وغير ذلك، والصحيح أن نقول: «ما شاء الله، ثم شئت»، و«ما لي إلا الله، ثم أنت»، و«لولا الله، ثم أنت»؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[٥]؛ لأن «ثم» تفيد التبعية والاسترخاء.

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه الترمذي [١٥٣٥]، وقال: «هذا حديث حسن».

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود [٣٢٤٨]، واللفظ له، والنسائي [٣٧٦٩].

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود [٣٢٥٣].

(٤) صحيح لغيره: أخرجه أحمد في «المسند» [١٨٣٩]، واللفظ له، و[١٩٦٤]، و[٢٥٦١]، و[٣٢٤٧]، وأخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٧٨٣].

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود [٤٩٨٠].

٤- التبرك بشجرة، أو حجرة، أو قبر:

فإن من تبرك بالشجر أو الحجر أو القبر معتقدًا في هذه الأشياء أنها سبب لجلب نفع أو دفع ضر؛ كان هذا شركًا أصغرًا، وإن اعتقد أنها تنفع أو تضر من دون الله؛ فهذا شرك أكبر يخرج من الملة؛ لأن الذي يملك النفع والضر هو الله وحده لا شريك له، فلا يجوز التبرك بشيئ مع اعتقاد نفعه أو ضره؛ فالحجر الأسود ـ الذي هو أفضل حجر على وجه الأرض، وقد نزل من الجنة، وكان أشد بياضًا من اللبن، ولكن سودته خطايا بني آدم؛ كما قال رسول الله ﷺ[1] يأتيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجه ليستلمه، وعندما استلمه قال: «**إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**»[2].

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين، يقال لها: ذات أنواط؛ يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** [الأعراف:١٣٨]، **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[3].

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن؛ فسودته خطايا بني آدم**»، وهو حديث صحيح؛ أخرجه الترمذي [٨٧٧]، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري [١٥٩٧]، ومسلم [٢٤٨] [١٢٧٠].

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي [٢١٨٠]، وقال: «حديث حسن صحيح».

وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»[1].

٥ ـ تعليق التميمة:

ومثله إرتداء ما يسمى «الحظاظة»، ومثله أيضًا: تعليق حذاء على باب المحل أو البيت، أو إرتداء الخرزة الزرقاء، أو وضع عين في خيط وتعليقها في السيارة وغير ذلك، وهذه الأشياء إن اعتقد صاحبها أنها سبب في جلب نفع أو دفع ضر؛ فهذا شرك أصغر، وإن إعتقد أنها تضر وتنفع من دون الله فهذا شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام، وسميت التميمة بهذا الأسم؛ لأن من يرتديها يعتقد أنه يتم بها دفع العين، ولا يجوز تعليق هذه التمائم، فعن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في بعض أسفاره، والناس في مبيتهم؛ فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا أن: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، وَلَا قِلَادَةٌ، إِلَّا قُطِعَتْ»[2].

(١) صحيح موقوفًا: أخرجه البخاري [٤٩٢٠]، وهو في حكم المرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ هو من قبيل ما لا مجال للرأي فيه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري [٣٠٠٥]، واللفظ له، ومسلم [١٠٥] [٢١١٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»[١]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»[٢].

وعن عزرة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سَيْرًا؛ فقطعه، أو انتزعه، ثم قال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦][٣].

وإن قال قائل: أنا لا ألبس الحظاظة من أجل الحظ، ولكن ألبسها للزينة؛ فنقول له: هذا لا يجوز أيضًا، وذلك لما فيه التشبه بالنساء، وقد قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»[٤]، وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَعَنَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لُبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لُبْسَةَ الرَّجُلِ»[٥]، ولأنه من عادات اليهود والنصارى، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[٦].

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد في «المسند» [١٧٤٠٤].

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» [١٧٤٢٢].

(٣) إسناده حسن: أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» [١٢٠٤٠].

(٤) صحيح: أخرجه البخاري [٥٨٨٥].

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود [٤٠٩٨].

(٦) صحيح: أخرجه أبو داود [٤٠٣١].

رابعًا- التحذير من الإعراض عن دين الله:

فإنه متى حصل لأمة نزلت بها النقم وسلبها الله النعم، وكم هذه الحال مشاهدة هنا وهناك لا بين الأمم والشعوب فحسب بل حتى بين الأفراد [أيسر التفاسير].

خامسًا- التحذير من كفر النعم:

بالإسراف فيها وصرفها في غير مرضاة الله وواهبها عَزَّوَجَلَّ.

[المصدر السابق]

سادسًا- خطر الحسد وأنه داء:

لا دواء له، والعياذ بالله يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

[المصدر السابق]

سابعًا- فضيلة الصبر والشكر: وعلو شأن الصبور الشكور.

[المصدر السابق]

***

قصة مؤمن آل يس

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [يس: ١٤-١٧].

يَقُولُ تَعَالَى: وَاضْرِبْ - يَا مُحَمَّدُ - لِقَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ ﴿مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ - فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ -: إِنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَةَ، وَكَانَ بِهَا مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ: أَنْطِيخُسُ بْنُ أَنْطِيخَسَ بْنِ أَنْطِيخَسَ، وَكَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ ثَلَاثَةً مِنَ الرُّسُلِ، وَهُمْ: صَادِقٌ وَصَدُوقٌ وَشَلُومُ، فَكَذَّبَهُمْ.

وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ، وَعِكْرِمَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالزُّهْرِيِّ: أَنَّهَا أَنْطَاكِيَةُ.

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ كَوْنَهَا أَنْطَاكِيَةَ، بِمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَّةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أَيْ: بَادَرُوهُمَا بِالتَّكْذِيبِ، ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ أَيْ: قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَدْنَا أَزْرَهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ شُعَيْبٍ الْجُبَّائِيِّ قَالَ: كَانَ اسْمُ الرَّسُولَيْنِ الْأَوَّلِينَ شَمْعُونَ وَيُوحَنَّا، وَاسْمُ الثَّالِثِ بُولِصَ، وَالْقَرْيَةُ أَنْطَاكِيَةُ.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أَيْ: لِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ أَيْ: مِنْ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ، نَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ.

وَزَعَمَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ: أَنَّهُمْ كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَى أَهْلِ أَنْطَاكِيَةَ. ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أَيْ: فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ، فَلِمَ لَا أُوحِيَ إِلَيْنَا مِثْلَكُمْ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً. وَهَذِهِ شِبْهُ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، فَاسْتَعْجَبُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكَرُوهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وَقَوْلُهُ حِكَايَةً عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وَلِهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ أَيْ: أَجَابَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الثَّلَاثَةُ قَائِلِينَ: اللهُ يَعْلَمُ أَنَّا رُسُلُهُ إِلَيْكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَذَبَةً عَلَيْهِ لَانْتَقَمَ مِنَّا أَشَدَّ الِانْتِقَامِ، وَلَكِنَّهُ سَيُعِزُّنَا وَيَنْصُرُنَا عَلَيْكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يَقُولُونَ إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَطَعْتُمْ كَانَتْ لَكُمُ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ تُجِيبُوا فَسَتَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٨-١٩].

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أَيْ: لَمْ نَرَ عَلَى وُجُوهِكُمْ خَيْرًا فِي عَيْشِنَا.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُونَ إِنْ أَصَابَنَا شَرٌّ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِكُمْ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ: لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُكُمْ إِلَى قَرْيَةٍ إِلَّا عُذِّبَ أَهْلُهَا.

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾: قَالَ قَتَادَةُ: بِالْحِجَارَةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالشَّتْمِ.

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ: عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ. فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ: مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وَقَالَ قَوْمُ صَالِحٍ: ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٤٧]. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: أَيْ أَعْمَالُكُمْ مَعَكُمْ. وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أَيْ: مِنْ أَجْلِ أَنَّا ذَكَّرْنَاكُمْ وَأَمَرْنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، قَابَلْتُمُونَا بِهَذَا الْكَلَامِ، وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيْ إِنْ ذَكَّرْنَاكُمْ بِاللهِ تَطَيَّرْتُمْ بِنَا، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠-٢٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ - فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ -: إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ هَمُّوا بِقَتْلِ رُسُلِهِمْ فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، أَيْ: لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ - قَالُوا: وَهُوَ حَبِيبٌ، وَكَانَ يَعْمَلُ الْجَرِيرَ - وَهُوَ الْحِبَالُ - وَكَانَ رَجُلًا سَقِيمًا قَدْ أَسْرَعَ فِيهِ الْجُذَامُ، وَكَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَةِ، يَتَصَدَّقُ بِنِصْفِ كَسْبِهِ، مُسْتَقِيمَ النَّظْرَةِ.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ رَجُلٍ سَمَّاهُ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنْ مِقْسَمٍ - أَوْ: عَنْ مُجَاهِدٍ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ اسْمُ صَاحِبِ يس حَبِيبًا، وَكَانَ الْجُذَامُ قَدْ أَسْرَعَ فِيهِ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ: كَانَ اسْمُهُ حَبِيبَ بْنَ مَرَى.

وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ بِشْرٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ: اسْمُ صَاحِبِ يس حَبِيبٌ النَّجَّارُ، فَقَتَلَهُ قَوْمُهُ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ قَصَّارًا. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْحَكَمِ: كَانَ إِسْكَافًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ يَتَعَبَّدُ فِي غَارٍ هُنَاكَ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: يَحُضُّ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَتَوْهُمْ، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أَيْ: عَلَى إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ، مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أَيْ: وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أَيْ: هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا. فَإِنَّ اللهَ لَوْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]، وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنْعَهُ، وَلَا يُنْقِذُونَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ، ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: إِنِ اتَّخَذْتُهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ - فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَعْبٍ وَوَهْبٍ - يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ، ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَيْ: فَاسْمَعُوا قَوْلِي.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابُهُ لِلرُّسُلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيِ: الَّذِي أَرْسَلَكُمْ، ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَيْ: فَاشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ عِنْدَهُ. وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فَقَالَ: وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الرُّسُلَ، وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعُوا قَوْلِي، لِتَشْهَدُوا لِي بِمَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّي، إِنِّي قَدْ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ.

وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي حَكَاهُ هَؤُلَاءِ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ - فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَعْبٍ وَوَهْبٍ -: فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ وَثَبُوا عَلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَتَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ يَمْنَعُ عَنْهُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: جَعَلُوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللهمَّ اهْدِ قَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَقْعَصُوهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ، فَقَتَلُوهُ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس: ٢٦-٢٩].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّهُمْ وَطِئُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَ قُصْبُهُ مِنْ دُبُرِهِ وَقَالَ اللهُ لَهُ: ﴿ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، فَدَخَلَهَا فَهُوَ يُرْزَقُ مِنْهَا، قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْهُ سُقْمَ الدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَبَهَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قِيلَ لِحَبِيبٍ النَّجَّارِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ قُتِلَ فَوَجَبَتْ لَهُ، فَلَمَّا رَأَى الثَّوَابَ ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾.

قَالَ قَتَادَةُ: لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا، لَا تَلْقَاهُ غَاشًّا; لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾. تَمَنَّى عَلَى اللهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ [لَهُ]، وَمَا هَجَمَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠]، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ بِإِيمَانِي بِرَبِّي وَتَصْدِيقِي الْمُرْسَلِينَ.

وَمَقْصُودُهُ أَنَّهُمْ لَوِ اطَّلَعُوا عَلَى مَا حَصَلَ مِنْ هَذَا الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ، فَرَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ، فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابْعَثْنِي إِلَى قَوْمِي أَدْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ**». فَقَالَ: لَوْ وَجَدُونِي نَائِمًا مَا أَيْقَظُونِي. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْطَلِقْ**». فَانْطَلَقَ فَمَرَّ عَلَى اللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ: لَأُصَبِّحَنَّكِ غَدًا بِمَا يَسُوءُكِ. فَغَضِبَتْ ثَقِيفٌ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ ثَقِيفٍ، إِنَّ اللَّاتَ لَا لَاتَ، وَإِنَّ الْعُزَّى لَا عُزَّى، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا. يَا مَعْشَرَ الْأَحْلَافِ، إِنَّ الْعُزَّى لَا عُزَّى، وَإِنَّ اللَّاتَ لَا لَاتَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا. قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَتَلَهُ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**هَذَا مَثَلُهُ كَمَثَلِ صَاحِبِ يس**، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾: يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ، غَضَبًا مِنْهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ. وَيَذْكُرُ تَعَالَى: أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ، وَمَا احْتَاجَ فِي إِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى إِنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، بَلِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ

﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أَيْ: مَا كَاثَرْنَاهُمْ بِالْجُمُوعِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قَالَ: فَأَهْلَكَ اللهُ ذَلِكَ الْمَلِكَ، وَأَهْلَكَ أَهْلَ أَنْطَاكِيَةَ، فَبَادُوا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ.

وَقِيلَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أَيْ: وَمَا كُنَّا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ، بَلْ نَبْعَثُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يُدَمِّرُهُمْ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى إِلَيْهِمْ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. قَالَ قَتَادَةُ: فَلَا وَاللهِ مَا عَاتَبَ اللهُ قَوْمَهُ بَعْدَ قَتْلِهِ، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ; لِأَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُسَمَّى جُنْدًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْ بَابِ بَلَدِهِمْ، ثُمَّ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ عَنْ آخِرِهِمْ، لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ رُوحٌ تَتَرَدَّدُ فِي جَسَدٍ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ هِيَ أَنْطَاكِيَةُ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ كَانُوا رُسُلًا مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُذْكَرْ عَنْ وَاحِدٍ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْمُفَسِّرِينَ غَيْرِهِ، وَفِي ذَلِكَ نَظَرٌ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّ ظَاهِرَ الْقِصَّةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا رُسُلَ الله عَزَّوَجَلَّ، لَا مِنْ جِهَةِ الْمَسِيحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٤- ١٧]. وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ لَقَالُوا عِبَارَةً تُنَاسِبُ أَنَّهُمْ مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالله أَعْلَمُ. ثُمَّ لَوْ كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ لَمَا قَالُوا لَهُمْ: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

الثَّانِي- أَنَّ أَهْلَ أَنْطَاكِيَةَ آمَنُوا بِرُسُلِ الْمَسِيحِ إِلَيْهِمْ، وَكَانُوا أَوَّلَ مَدِينَةٍ آمَنَتْ بِالْمَسِيحِ; وَلِهَذَا كَانَتْ عِنْدَ النَّصَارَى إِحْدَى الْمَدَائِنِ الْأَرْبَعَةِ اللَّاتِي فِيهِنَّ بِتَارِكَةٌ، وَهُنَّ الْقُدْسُ لِأَنَّهَا بَلَدُ الْمَسِيحِ، وَأَنْطَاكِيَةُ لِأَنَّهَا أَوَّلُ بَلْدَةٍ آمَنَتْ بِالْمَسِيحِ عَنْ آخِرِ أَهْلِهَا، وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةُ لِأَنَّ فِيهَا اصْطَلَحُوا عَلَى اتِّخَاذِ الْبَتَارِكَةِ وَالْمَطَارِنَةِ وَالْأَسَاقِفَةِ وَالْقَسَاوِسَةِ وَالشَّمَامِسَةِ وَالرُّهَابِيْنِ. ثُمَّ رُومِيَّةُ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينَ الَّذِي نَصَرَ دِينَهُمْ وَأَطَّدَهُ. وَلَمَّا ابْتَنَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ نَقَلُوا الْبُتْرَكَ مِنْ رُومِيَّةَ إِلَيْهَا، كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ ذَكَرَ تَوَارِيخَهُمْ كَسَعِيدِ بْنِ بِطْرِيقَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ أَنْطَاكِيَةَ أَوَّلُ مَدِينَةٍ آمَنَتْ، فَأَهْلُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَدْ ذَكَرَ الله تَعَالَى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ أَخْمَدَتْهُمْ، فَالله أَعْلَمُ.

الثَّالِثُ- أَنَّ قِصَّةَ أَنْطَاكِيَةَ مَعَ الْحَوَارِيِّينَ أَصْحَابِ الْمَسِيحِ بَعْدَ نُزُولِ التَّوْرَاةِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعْدَ إِنْزَالِهِ التَّوْرَاةَ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ عَنْ آخِرِهِمْ بِعَذَابٍ يَبْعَثُهُ عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، ذَكَرُوهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. فَعَلَى هَذَا يَتَعَيَّنُ أَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ قَرْيَةٌ أُخْرَى غَيْرُ أَنْطَاكِيَةَ، كَمَا أَطْلَقَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا. أَوْ تَكُونُ أَنْطَاكِيَةُ إِنْ كَانَ لَفْظُهَا مَحْفُوظًا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَدِينَةً أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْمَشْهُورَةِ الْمَعْرُوفَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهَا أُهْلِكَتْ لَا فِي الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَلَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

[يس: ٣٠-٣٢]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أَيْ: يَا وَيْلَ الْعِبَادِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾: أَيْ يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا، عَلَى مَا ضَيَّعَتْ مِنْ أَمْرِ اللهِ، فَرَّطَتْ فِي جَنْبِ اللهِ. قَالَ: وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَةِ: يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا.

وَمَعْنَى هَذَا: يَا حَسْرَتَهُمْ وَنَدَامَتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَايَنُوا الْعَذَابَ، كَيْفَ كَذَّبُوا رُسُلَ الله، وَخَالَفُوا أَمْرَ الله، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْمُكَذِّبُونَ مِنْهُمْ.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ: يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ: أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ الله قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، كَيْفَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّةٌ وَلَا رَجْعَةٌ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ جَهَلَتِهِمْ وَفَجَرَتِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وَهُمُ الْقَائِلُونَ بِالدَّوْرِ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانُوا فِيهَا، فَرَدَّ الله تَعَالَى عَلَيْهِمْ بَاطِلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ: وَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ سَتَحْضُرُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيِ الله عَزَّوَجَلَّ، فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَمَعْنَى هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [هود: ١١١].

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي أَدَاءِ هَذَا الْحَرْفِ; فَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: (وَإِنْ كُلٌّ لَمَا) بِالتَّخْفِيفِ، فَعِنْدَهُ أَنَّ (إِنْ) لِلْإِثْبَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَدَّدَ (لَمَّا)، وَجَعَلَ (إِنَّ) نَافِيَةً،

وَ (لَمَّا) بِمَعْنَى (إِلَّا) تَقْدِيرُهُ: وَمَا كُلٌّ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضِرُونَ، وَمَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الدروس والعبر من القصة:

أولا- النصيحة من صفات المرسلين والأنبياء:

قال تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٨].

وقال تعالى عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٩].

وقال تعالى شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٣].

ثانيًا- فضائل النصيحة:

١- تكون من عباد الله المحسنين

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١].

٢- سبب لدخول الجنة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: شَهِيدٌ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ الله وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ»[1].

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

[المختصر النصيح فى تهذيب كتاب الجامع]

---

(١) رواه الترمذى واللفظ له وقال: هذا حديث حسن ورواه أحمد وقال مخرجه: إسناده حسن، وقال مخرج جامع الأصول: رواه أيضًا الحاكم والبيهقي، والحديث كما قال الترمذى.

٣- سبب لزيادة الأجر

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ» [صحيح البخارى ومسلم].

وفى رواية عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلْمَمْلُوكِ الَّذِي يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَيُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَالطَّاعَةِ أَجْرَانِ» [صحيح البخارى ومسلم].

٤- النصيحة من حقوق المسلم

عَنْ جَرِيرٍ بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» [صحيح البخارى ومسلم].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قِيلَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ تَعُودُهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبَعْهُ» [صحيح البخارى ومسلم].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الْكَسْبِ، كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ»[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده حسن وأشار إلى حسنه، وذكره الألباني فى صحيح الجامع.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِلْمُؤْمِنِ عَلَى المُؤْمِنِ سِتُّ خِصَالٍ، يَعُودُهُ إِذَا مَرِضَ وَيَشْهَدُهُ إِذَا مَاتَ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَيُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَنْصَحُ لَهُ إِذَا غَابَ أَوْ شَهِدَ»(١).

٥- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرع من النصيحة.

فضائل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

١- الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

٢- تكون حقا من أهل الآخرة:

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال قتادة: «هم خير أمة إذا قاموا بهذا الشرط، فمن لم يقم بهذا الشرط فليس من خير أمة».

وتأمل أن الله تعالى قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان بالله تعالى، وذلك لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) رواه الترمذى واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح وذكره الشيخ الألبانى فى صحيح النسائى.

قال الإمام ابن كثير: «فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]».

٣- سبب الرحمة:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٧١].

٤- هم الذين اشتراهم الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١١-١١٢].

٥- النجاة من العقاب:

قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ» [صحيح الترمذي].

وقال ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» [صحيح أبي داود].

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥].

٦- له أجر من تبعه:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» [صحيح مسلم].

٧- سبب التمكين في الأرض:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [الحج:٤٠].

٨- سبب النجاة في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥].

٩- من صفات المؤمنين:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِهَا ثُمَّ يَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» [صحيح مسلم].

١٠- ليس أحد أفضل منك:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

١١- من الصدقات:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ لَكَ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ» [حسن الترمذي].

ثالثًا- آداب النصيحة:

١- الإخلاص

على الناصح أن يخلص فى نصيحته، وأن يقصد بها وجه الله الواحد الأحد، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**».

٢- اللين فى النصح

ومن آداب أهل السنة في النصيحة؛ أنهم ينصحون بلين، **أي**: بكلمة طيبة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يذكر نصيحة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه المشرك: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وانظر أدب الخطاب، لم يقل: لم تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغنى عنك شيئا. وإنما قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾! ثم كرر ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مرات، وهذا هو اللطف.

وهذا آتى في سورة لقمان، يوم قال لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾! فقال فى أول الخطاب: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾!

أخذ من ذلك بعض العلماء: أن عليك أن تقدم مقدمات للمنصوح، إذا أخطأ عالم من العلماء فلا تقل: يا فلان! أخطأت، لكن قل: أنت صاحب فضل، وأنت صاحب خير، ونفع الله بك، وقد شفى الله بك العليل، وأروى

الغليل، وأفاد الأمة، ولكن ما رأي سماحتكم فى هذه المسألة؟ أينكرها؟ أما أن تصدمه بالرد صدمًا على وجهه، فكيف يقبلها؟ تأتى إلى وجيه في الناس فتقول: أنت فيك كيت وكيت، ولكن تقول قد نفع الله بك، ثم تذكر جوانب الخير فيه، ثم تلاحظ عليه ملاحظة، هذا من اللين.

قال ابن المبارك، في بيتين من آدب الدعاة وأدب النصيحة:

إذا رافقت قومًا أهل ودى فكن لهم كذى الرحم الشفيق

ولا تأخذ بزلة كل قوم فتبقى فى الزمان بلا رفيق

٣- الستر وعدم التشهير

من آداب النصيحة نصيحة الخاصة للخاصة، ونصيحة العامة للعامة:

من هم الخاصة؟ الخاصة هم قوم لهم مسئولية خاصة، ولاة الأمر، فهدى أهل السنة أن ينصحوهم فى آذانهم بلا فضيحة، ولذلك كان أحمد ينصح المعتصم بينه وبينه، ولهم طريق آخر فى نصيحة العامة، فهم ينصحون العامة على ملأ من الناس، فيبينون أخطاءهم لهم بلا أسماء، وبلا أشخاص، كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يرى الخطأ فلا يقول للرجل أخطأت، ولكن يصعد المنبر فيقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**».

٤- الإسرار بالنصح في موضعه

من آداب أهل السنة في النصيحة؛ أنهم يسرون بها في موضع الإسرار، قال الشافعي:

تعمدنى بنصحك فى انفراد ... وجنبني النصيحة فى الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتنى وعصيت أمري ... فلا يجزع إذا لم تعط طاعة

فطبيعة الإنسان أنه إذا رأى الخصام والجدل لن يقبل، يغلق منافذ السمع لن يتقبل، فأهل السنة يسرون بالنصيحة في موضع الإسرار، يسرون بها بكتابة أو اتصال أو غيره، إذا علم أن المنصوح لا يريد إلا الخير بدعوته.

٥- العمل بالنصيحة

ومن آداب النصيحة في الإسلام: أن تعمل أنت بالنصيحة التى توجهها للناس، لعلَّ الله أن ينفع بها، يقول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال خطيب الأنبياء شعيب عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

فإذا أردت أن ينفع الله بدعوتك وبنصيحتك، فاعمل بها أنت أولًا، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وهذه أكبر القواصم التى يتعرض لها الداعية فى الحياة، أن يتكلم بكلام جميل ولكن فعله قبيح، فيكذب فعله قوله فلا يتقبل الناس منه، ولا يجعل الله لكلامه تأثيرًا ولا نورًا.

فى الصحيحين من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى**»، قَالَ: «**فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ إِلَيْهِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، أَمَا كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟**» قَالَ: «فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» [الإمام أحمد].

قال بعض العلماء معلقًا على الحديث: ما دخل النار بسبب أمره ولا بنهيه، وإنما دخل النار بسبب مخالفته لأمره ونهيه.

٦- التثبت مما تنصح منه

ومن آداب النصيحة عند أهل السنة أن تتثبت من الشيء المنقول إليك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]. وقال: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فعلى الناصح أن يتثبت من الشائعات، حتى ينكر أو يأمر على بصيرة، فإذا أمر ونهى كان على قدم ثابتة مما قال ومما فعل، كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أتته الأخبار؛ سأل وتثبت عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واحتاط حتى يبلغ به العلم اليقين.

٧- الصبر على الأذى فى النصيحة

ومن آداب أهل السنة فى النصيحة: أنهم يصبرون على الأذى، ينصحون بلين، ولكن نتائج النصيحة لا نعرفها؛ لأن المنصوحين ليسوا على طبقة واحدة، بعضهم يفتح قلبه لك، ويفتح بابه، ويعانقك، وبعضهم يردك من عند الباب بلا ضرب وبلا ملاكمة والحمد الله، وبعضهم يكشر فى وجهك، ويرفع صوته، وبعضهم يرد عليك بكف حامية، وهذه منازل الناس، ولذلك قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧]. فأتى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوذى، ومهما أوذى من الدعاة والعلماء وطلبة العلم والصالحون والصالحات؛ لن يبلغوا عشر معشار ما وُجد من الأذى ما وجد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فى سبيل الدعوة.

[المصدر: محاضرة للشيخ الداعية عائض القرني.... مع اختصار]

رابعًا- أسباب قبول النصيحة:

١- الإخلاص

على الناصح أن يخلص فى نصيحته، وأن يقصد بها وجه الله الواحد الأحد، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**».

٢- اللين فى النصح

ومن آداب أهل السنة في النصيحة؛ أنهم ينصحون بلين، **أي**: بكلمة طيبة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو يذكر نصيحة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه المشرك: ﴿يَا أَبَتِ﴾ وانظر أدب الخطاب، لم يقل: لم تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغنى عنك شيئا. وإنما قال: ﴿يَا أَبَتِ﴾! ثم كرر ﴿يَا أَبَتِ﴾ مرات، وهذا هو اللطف.

وهذا آتى في سورة لقمان، يوم قال لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ﴾! فقال فى أول الخطاب: ﴿يَا بُنَيَّ﴾!

أخذ من ذلك بعض العلماء: أن عليك أن تقدم مقدمات للمنصوح، إذا أخطأ عالم من العلماء فلا تقل: يا فلان! أخطأت، لكن قل: أنت صاحب فضل، وأنت صاحب خير، ونفع الله بك، وقد شفى الله بك العليل، وأروى

الغليل، وأفاد الأمة، ولكن ما رأي سماحتكم فى هذه المسألة؟ أينكرها؟ أما أن تصدمه بالرد صدمًا على وجهه، فكيف يقبلها؟ تأتى إلى وجيه في الناس فتقول: أنت فيك كيت وكيت، ولكن تقول قد نفع الله بك، ثم تذكر جوانب الخير فيه، ثم تلاحظ عليه ملاحظة، هذا من اللين.

قال ابن المبارك، في بيتين من آدب الدعاة وأدب النصيحة:

إذا رافقت قومًا أهل ودى فكن لهم كذى الرحم الشفيق

ولا تأخذ بزلة كل قوم فتبقى فى الزمان بلا رفيق

٣- الستر وعدم التشهير

من آداب النصيحة نصيحة الخاصة للخاصة، ونصيحة العامة للعامة:

من هم الخاصة؟ الخاصة هم قوم لهم مسئولية خاصة، ولاة الأمر، فهدى أهل السنة أن ينصحوهم فى آذانهم بلا فضيحة، ولذلك كان أحمد ينصح المعتصم بينه وبينه، ولهم طريق آخر فى نصيحة العامة، فهم ينصحون العامة على ملأ من الناس، فيبينون أخطاءهم لهم بلا أسماء، وبلا أشخاص، كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يرى الخطأ فلا يقول للرجل أخطأت، ولكن يصعد المنبر فيقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**».

٤- الإسرار بالنصح في موضعه

من آداب أهل السنة في النصيحة؛ أنهم يسرون بها في موضع الإسرار، قال الشافعي:

تعمدنى بنصحك فى انفراد ... وجنبني النصيحة فى الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتنى وعصيت أمري ... فلا يجزع إذا لم تعط طاعة

فطبيعة الإنسان أنه إذا رأى الخصام والجدل لن يقبل، يغلق منافذ السمع لن يتقبل، فأهل السنة يسرون بالنصيحة في موضع الإسرار، يسرون بها بكتابة أو اتصال أو غيره، إذا علم أن المنصوح لا يريد إلا الخير بدعوته.

٥- العمل بالنصيحة

ومن آداب النصيحة في الإسلام: أن تعمل أنت بالنصيحة التى توجهها للناس، لعلَّ الله أن ينفع بها، يقول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال خطيب الأنبياء شعيب عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

فإذا أردت أن ينفع الله بدعوتك وبنصيحتك، فاعمل بها أنت أولًا، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وهذه أكبر القواصم التى يتعرض لها الداعية فى الحياة، أن يتكلم بكلام جميل ولكن فعله قبيح، فيكذب فعله قوله فلا يتقبل الناس منه، ولا يجعل الله لكلامه تأثيرًا ولا نورًا.

فى الصحيحين من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى**»، قَالَ: «**فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ إِلَيْهِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، أَمَا كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟**» قَالَ: «فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» [الإمام أحمد].

قال بعض العلماء معلقًا على الحديث: ما دخل النار بسبب أمره ولا بنهيه، وإنما دخل النار بسبب مخالفته لأمره ونهيه.

٦- التثبت مما تنصح منه

ومن آداب النصيحة عند أهل السنة أن تتثبت من الشيء المنقول إليك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]. وقال: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فعلى الناصح أن يتثبت من الشائعات، حتى ينكر أو يأمر على بصيرة، فإذا أمر ونهى كان على قدم ثابتة مما قال ومما فعل، كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أتته الأخبار؛ سأل وتثبت عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واحتاط حتى يبلغ به العلم اليقين.

٧- الصبر على الأذى فى النصيحة

ومن آداب أهل السنة فى النصيحة: أنهم يصبرون على الأذى، ينصحون بلين، ولكن نتائج النصيحة لا نعرفها؛ لأن المنصوحين ليسوا على طبقة واحدة، بعضهم يفتح قلبه لك، ويفتح بابه، ويعانقك، وبعضهم يردك من عند الباب بلا ضرب وبلا ملاكمة والحمد الله، وبعضهم يكشر فى وجهك، ويرفع صوته، وبعضهم يرد عليك بكف حامية، وهذه منازل الناس، ولذلك قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧]. فأتى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوذى، ومهما أوذى من الدعاة والعلماء وطلبة العلم والصالحون والصالحات؛ لن يبلغوا عشر معشار ما وُجد من الأذى ما وجد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فى سبيل الدعوة.

[المصدر: محاضرة للشيخ الداعية عائض القرني.... مع اختصار]

خامسًا- أسباب عدم قبول النصيحة:

١- الكبر

فإن أعظم سبب لعدم قبول النصيحة هو الكبر، لأن المتكبر يظن أنه أفضل الناس وله ما ليس لغيره ولو علم حقيقة نفسه ما تكبر طرفة عين ولكنه الغرور فهو حفيد إبليس ولذلك المتكبر حرم من أعظم النصائح وهى نصيحة الله تعالى له ونصيحة رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٢- الجهل

قال الإمام ابن القيم: «وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس فإن من جهل شيئًا عاداه وعاد أهله، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحده كان المانع من القبول أقوى».

٣- اتباع الشهوات

ممن تعلق قلبه بمعصية وأحبها لا يحب أحد أن ينصحه، ولولا سُكْر المعصية لاستغاثوا من المعاصي، كما قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

٤- حب الدنيا والعمل من أجلها

قال الشافعى: «من ادَّعى أنه جمع بين حب الدنيا وخالقها فى قلبه فقد كذب».

وقال يحيي بن معاذ الرازى: «الدنيا خمُر الشيطان من سكر منها فلا يفيقُ إلا فى عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين».

وقال عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رأس الخطيئة حبُّ الدنيا، والنساء، حبالةُ الشيطان، والخمر جماعُ كلِّ شر» [رواه ابن أبي الدنيا].

٥- اتباع الهوى

قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

[الفرقان: ٤٣-٤٤]

قال الإمام ابن كثير: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا فى هوى نفسه كان دينه ومنهجه كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨].

واتباع الهوى ضد الشرع كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

٦- الغلظة فى النصيحة

فكثير من الناس لا يحسن أن ينصح فينفر المنصوح كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ مِنْكُمْ لَمُنَفِّرِينَ**» [مسند الإمام أحمد].

وساق ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده: «بينما الرشيد هارون يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة فاحتمله لي: فقال: لا، ولا نعمة عين ولا كرامة، قد بعث الله من هو خير منك إلى منْ هو شرَّ مني فأمر أن يقول له قولًا ليِّنًا». يقصد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «لما أرسله الله إلى فرعون» [تاريخ دمشق].

٧- النصيحة فى العلن أمام الناس

فهذا السبب من أعظم أسباب عدم قبول النصيحة لأنه يفضح المنصوح ويجرحه أمام الناس.

كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتكُ ويُعير».

وقال رجلُ لمسعر بن كدام: «أتحب أن يخبرك الرجل بعيوبك؟ قال: إن كان ناصحًا فنعم، وإن كان يريد أن يؤنبني فلا» [تاريخ دمشق].

وعن إبراهيم بن بشار الرمادي، قال: قلت لسفيان بن عيينة: أيسرك أن يُهدى إليك عيبك؟ قال: أمّا من صديق فنعم، وأما من مُوبِّخ أو شامتٍ فلا» [الجامع لشعب الإيمان].

وسئل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقال إن: «كنت فاعلًا ولابدّ، ففيما بينك وبينه» [جامع العلوم والحكم].

وقال يحيي بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما رأيت على رجل قط خطأ إلا سترته، وأحببت أن أزيِّن أمره، وما استقبلت رجلًا في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبين له خطأه في ما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلا تركْتُه» [تاريخ دمشق].

[آداب السلف فى التعامل مع الناس، رضا بن عبد الحميد فتح الله]

٨- عدم الإخلاص فى النصيحة

فإن الإخلاص من أعظم أسباب فتح القلوب.

وعن عمر بن ذر أنه قال لوالده: «يا أبي مالك إذ وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بنى، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة» [العقد الفريد، حلية طالب العلم].

فالذى ينصح من أجل الرياء والسمعة وأن يعرف أن يكون له شأن بين المجتمع، لا تنفع نصيحته الأخرين وهذا أمر معروف.

٩- عدم اختيار الوقت المناسب

فكثير من الناس لا يختار الوقت المناسب فلابد من اختيار الوقت المناسب والمكان المناسب ومراعاة أحوال المنصوح وهذه هى الحكمة.

كما قالوا عن الحكمة: «هى قول ما ينبغي على الوجه الذى ينبغى فى الوقت الذى ينبغي».

١٠- عدم إشعار المنصوح بالحرص والشفقة عليه أثناء النصيحة

فإذا شعر المنصوح بأن الذى ينصحه يحبه ويخاف عليه وحريص على نفعه.

مثل أن يقول له قبل النصيحة إنى أحبك أو خايف عليك أو أحب لك كما أحب لنفسى أو يذكر بعض فضائل المنصوح قبل النصيحة فإن مثل ذلك يكون سبب فى فتح القلوب.

***

قصة مؤمن آل فرعون

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[غافر: ٢٨-٢٩].

الْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ كَانَ قِبْطِيًّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ.

قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ ابْنَ عَمِّ فِرْعَوْنَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ الَّذِي نَجَا مَعَ مُوسَى. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَرَدَّ قَوْلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ انْفَعَلَ لِكَلَامِهِ وَاسْتَمَعَهُ، وَكَفَّ عَنْ قَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَوْ كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا لَأَوْشَكَ أَنْ يُعَاجَلَ بِالْعُقُوبَةِ؛ لِأَنَّهُ مِنْهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمْ يُؤْمَنْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ سِوَى هَذَا الرَّجُلِ وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَالَّذِي قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص:٢٠] رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ قَوْمِهِ الْقِبْطِ، فَلَمْ يَظْهَرْ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ حِينَ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾، فَأَخَذَتِ الرَّجُلَ غَضْبَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ وَ

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ، وَلَا أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: لِأَجْلِ أَنْ يَقُولَ رَبِّي الله، اللهمَّ إِلَّا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَيْثُ قَالَ: عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ مِمَّا صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكَوْنِهِ يَقُولُ: (رَبِّيَ الله)، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمُ الْبُرْهَانَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ؟ ثُمَّ تَنَزَّلَ مَعَهُمْ فِي الْمُخَاطَبَةِ فَقَالَ: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا لَمْ يُظْهِرْ لَكُمْ صِحَّةَ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، فَمِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ التَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرُكُوهُ وَنَفْسَهُ، فَلَا تُؤْذُوهُ، فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَإِنَّ اللهَ سَيُجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا وَقَدْ آذَيْتُمُوهُ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمِنَ الْجَائِزِ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا، فَيَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَلَّا تَتَعَرَّضُوا لَهُ، بَلِ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ يَدْعُوهُمْ وَيَتْبَعُونَهُ.

وَهَكَذَا أَخْبَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الْمُوَادَعَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧-٢١]، وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقُرَيْشٍ أَنْ يَتْرُكُوهُ يَدْعُو إِلَى الله تَعَالَى عِبَادَ الله، وَلَا يَمَسُّوهُ بِسُوءٍ، وَأَنْ يَصِلُوا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ فِي تَرْكِ أَذِيَّتِهِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أَيْ: إِلَّا أَلَّا تُؤْذُونِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ، فَلَا تُؤْذُونِي وَتَتْرُكُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ. وَعَلَى هَذَا وُقِّعَتِ الْهُدْنَةُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَكَانَ فَتْحًا مُبِينًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا كَمَا تَزْعُمُونَ، لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا، يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الِاخْتِلَافِ وَالِاضْطِرَابِ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمَنْهَجَهُ مُسْتَقِيمًا، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ الله، وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنِ انْتِظَامِ أَمْرِهِ وَفِعْلِهِ.

ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحَذِّرًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ الله عَنْهُمْ وَحُلُولَ نِقْمَةِ الله بِهِمْ: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمُلْكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ النَّافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ، فَرَاعُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ

اللهِ، وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللهِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَهُ، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أَيْ: لَا تُغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ، وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِقَوْمِهِ، رَادًّا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ الَّذِي كَانَ أَحَقَّ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أَيْ: مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فَقَوْلُهُ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كَذَبَ فِيهِ وَافْتَرَى، وَخَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَرَعِيَّتَهُ، فَغَشَّهُمْ وَمَا نَصَحَهُمْ وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أَيْ: وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّشْدِ وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا لَمْ يَرُحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ».

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر: ٣٠-٣٥].

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ، مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ: أَنَّهُ حَذَّرَ قَوْمَهُ بَأْسَ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أَيِ: الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ الله فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ، كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ الله، وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَهْلَكَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ، وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ. فَأَنْفَذَ فِيهِمْ قَدَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا جَاءَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ: إِنَّ الْأَرْضَ إِذَا زُلْزِلَتْ وَانْشَقَّتْ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وَمَاجَتْ وَارْتَجَّتْ، فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى ذَلِكَ ذَهَبُوا هَارِبِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمُ الضَّحَّاكُ: بَلْ ذَلِكَ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ، ذَهَبَ النَّاسُ هِرَابًا، فَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَتَرُدُّهُمْ إِلَى مَقَامِ الْمَحْشَرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ [هود: ٩٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّحَّاكِ: أَنَّهُمْ قَرَؤُوا: يَوْمَ التَّنَادِّ بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ مِنْ نَدَّ الْبَعِيرُ: إِذَا شَرَدَ وَذَهَبَ.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْمِيزَانَ عِنْدَهُ مَلَكٌ، وَإِذَا وَزَنَ عَمَلَ الْعَبْدِ فَرَجَحَ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَلَا قَدْ سَعِدَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا. وَإِنْ خَفَّ عَمَلُهُ نَادَى: أَلَا قَدْ شَقِيَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يُنَادَى كُلُّ قَوْمٍ بِأَعْمَالِهِمْ: يُنَادَى أَهْلُ الْجَنَّةِ: أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ: أَهْلَ النَّارِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمُنَادَاةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ: ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وَمُنَادَاةُ أَهْلِ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ: ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وَلِمُنَادَاةِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وَاخْتَارَ الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجُمُوعِ ذَلِكَ. وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أَيْ: ذَاهِبِينَ هَارِبِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أَيْ: مَا لَكُمْ مَانِعٌ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أَيْ: مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ غَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مِصْرَ، قَدْ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِ مُوسَى، وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَزِيزَ أَهْلِ مِصْرَ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو إِلَى اللهِ أُمَّتَهُ الْقِبْطَ، فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ السَّاعَةَ إِلَّا لِمُجَرَّدِ الْوِزَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ; وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أَيْ: يَئِسْتُمْ فَقُلْتُمْ طَامِعِينَ: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أَيْ: كَحَالِكُمْ هَذَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أَيِ: الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُجَادِلُونَ الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَمْقُتُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَقْتِ; وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ: وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا يُبْغِضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتَهُ، فَإِنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ، يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا، وَلَا

يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أَيْ: عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿جَبَّارٍ﴾.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ - وَحُكِيَ عَنِ الشَّعْبِيِّ - أَنَّهُمَا قَالَا: لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ جَبَّارًا حَتَّى يَقْتُلَ نَفْسَيْنِ.

وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ وَقَتَادَةُ: آيَةُ الْجَبَابِرَةِ الْقَتْلُ بِغَيْرِ حَقٍّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ، وَعُتُوِّهِ، وَتَمَرُّدِهِ، وَافْتِرَائِهِ فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ صَرْحًا، وَهُوَ: الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ الشَّاهِقُ. وَكَانَ اتِّخَاذُهُ مِنَ الْآجُرِّ الْمَضْرُوبِ مِنَ الطِّينِ الْمَشْوِيِّ، كَمَا قَالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: كَانُوا يَكْرَهُونَ الْبِنَاءَ بِالْآجُرِّ، وَأَنْ يَجْعَلُوهُ فِي قُبُورِهِمْ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو صَالِحٍ: أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ. وَقِيلَ: طُرُقَ السَّمَاوَاتِ ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ، أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى فِي أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

أَيْ: بِصَنِيعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ: يَعْنِي إِلَّا فِي خَسَارٍ.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِقَوْمِهِ مِمَّنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لَا كَمَا كَذَبَ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ آثَرُوهَا عَلَى الْأُخْرَى، وَصَدَّتْهُمْ عَنِ التَّصْدِيقِ بِنَبِيِّ اللهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أَيْ: قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ عَنْ قَرِيبٍ تَذْهَبُ وَتَزُولُ وَتَضْمَحِلُّ، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أَيِ: الدَّارُ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا، وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا وَلَا ظَعْنَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا، بَلْ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا جَحِيمٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أَيْ: وَاحِدَةً مِثْلَهَا ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيْ: لَا يَتَقَدَّرُ بِجَزَاءٍ بَلْ يُثِيبُهُ اللهُ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا نَفَادَ.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤١-٤٦].

يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُ: مَا بَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَصْدِيقُ رَسُولِهِ الَّذِي بَعَثَهُ ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أَيْ: جَهْلٌ بِلَا دَلِيلٍ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أَيْ: هُوَ فِي عِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ يَقُولُ: حَقًّا.

قَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لَا كَذِبَ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يَقُولُ: بَلَى، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْوَثَنُ لَيْسَ بِشَيْءٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي الْوَثَنَ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَا يُجِيبُ دَاعِيَهُ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ [فاطر:١٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ; وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أَيْ: خَالِدِينَ فِيهَا بِإِسْرَافِهِمْ، وَهُوَ شِرْكُهُمْ بِالله.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أَيْ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَنَصَحْتُكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ، وَتَتَذَكَّرُونَهُ، وَتَنْدَمُونَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُكُمُ النَّدَمُ، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: وَأَتَوَكَّلُ عَلَى الله وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُقَاطِعُكُمْ وَأُبَاعِدُكُمْ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ: هُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ، فَيَهْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَالْقَدَرُ النَّافِذُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَنَجَّاهُ الله مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَبِالْجَنَّةِ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وَهُوَ: الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ. فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ

اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وَلَكِنَّ هَاهُنَا سُؤَالٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَقَدِ اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ فِي الْبَرْزَخِ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا هَاشِمٌ - هُوَ ابْنُ الْقَاسِمِ أَبُو النَّضْرِ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سَعِيدٍ - هُوَ ابْنُ عَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ - حَدَّثَنَا سَعِيدٌ - يَعْنِي أَبَاهُ - عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَخْدُمُهَا فَلَا تَصْنَعُ عَائِشَةُ إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا قَالَتْ لَهَا الْيَهُودِيَّةُ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ الْقَبْرِ. قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لِلْقَبْرِ عَذَابٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «لَا وَعَمَّ ذَلِكَ؟» قَالَتْ: هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ، لَا نَصْنَعُ إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا قَالَتْ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ الْقَبْرِ. قَالَ: «كَذَبَتْ يَهُودُ. وَهُمْ عَلَى اللهِ أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ثُمَّ مَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ نِصْفَ النَّهَارِ مُشْتَمِلًا بِثَوْبِهِ، مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «الْقَبْرُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ - أَيُّهَا النَّاسُ - لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا - أَيُّهَا النَّاسُ - اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ».

وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَرَوَى أَحْمَدُ: عَنْ عَائِشَةَ - قَالَ: سَأَلَتْهَا امْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ فَأَعْطَتْهَا، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ اللهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. فَأَنْكَرَتْ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ لَهُ، فَقَالَ: «لَا». قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ: «**وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ**».

وَهَذَا أَيْضًا عَلَى شَرْطِهِمَا.

فَيُقَالُ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ كَوْنِ الْآيَةِ مَكِّيَّةً، وَفِيهَا الدَّلِيلُ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَرْضِ الْأَرْوَاحِ إِلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا فِي الْبَرْزَخِ، وَلَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى اتِّصَالِ تَأَلُّمِهَا بِأَجْسَادِهَا فِي الْقُبُورِ، إِذْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِالرُّوحِ، فَأَمَّا حُصُولُ ذَلِكَ لِلْجَسَدِ وَتَأَلُّمُهُ بِسَبَبِهِ فَلَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ إِلَّا السُّنَّةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَرْضِيَّةِ الْآتِي ذِكْرُهَا.

وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْكُفَّارِ فِي الْبَرْزَخِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعَذَّبَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ بِذَنْبٍ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: أَشَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ؟ فَارْتَاعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ:

«إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟» وَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ هَارُونَ بْنِ سَعِيدٍ وَحَرْمَلَةَ، كِلَاهُمَا عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ الْأَيْلِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ بِهِ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْأَرْوَاحِ فِي الْبَرْزَخِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْأَجْسَادِ فِي قُبُورِهَا، فَلَمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِخُصُوصِيَّتِهِ اسْتَعَاذَ مِنْهُ، وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ أَشْعَثَ بْنِ أَبِي الشَّعْثَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ: أَعَاذَكِ الله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بَادَرَ إِلَى تَصْدِيقِ الْيَهُودِيَّةِ فِي هَذَا الْخَبَرِ، وَقَرَّرَ عَلَيْهِ. وَفِي الْأَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمَةِ: أَنَّهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَهُ الْوَحْيُ، فَلَعَلَّهُمَا قَضِيَّتَانِ، وَالله أَعْلَمُ، وَأَحَادِيثُ عَذَابِ الْقَبْرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً، مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، يُقَالُ لَهُمْ: يَا آلَ فِرْعَوْنَ، هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ، تَوْبِيخًا وَنِقْمَةً وَصَغَارًا لَهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُمْ فِيهَا الْيَوْمَ يُغْدَى بِهِمْ وَيُرَاحُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا الْمُحَارِبِيُّ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَرْوَانَ، عَنْ هُذَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ بِهِمْ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءُوا، وَإِنَّ أَرْوَاحَ وِلْدَانِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَجْوَافِ عَصَافِيرَ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، فَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ فِي الْعَرْشِ، وَإِنَّ أَرْوَاحَ آلِ فِرْعَوْنَ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ سُودٍ تَغْدُو عَلَى جَهَنَّمَ وَتَرُوحُ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ عَرْضُهَا.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ بِهِ.

الدروس والعبر من القصة:

١- أتباع الأنبياء هم أحرص الناس على هداية الخلق بعد الأنبياء.

٢- الدعوة إلى الله تعالى بالتلميح: إذا كان يقع عليك ضرر.

٣- ذكر محاسن دين الحق: حتى ينقاد الناس له ويحبونه.

٤- ذكر مساوئ الدين الباطل: حتى يرجع الناس لرب العالمين ولا يغترو بالباطل وأهله.

٥- قول الحق جهارًا: لو كان ينفع الأمة وتحمل الأذى في سبيل الله إذا كان يستطيع ذلك كما في القصة، وكما في قصة غلام الأخدود.

٦- المؤمن يفوض أمره لله: والله تعالى كافيه وحافظه ويتولى أمره وينجيه من كل سوء.

٧- إثبات عذاب القبر في القرآن: كما أنه ثابت في السنة الصحيحة.

٨- الداعية لابد أن يزهد الناس في الدنيا: فلابد للداعية أن يحقر الدنيا في أعين الناس كما حقرها الله تعالى في كتابه وكما حقرها الرسول ﷺ وتعظيم الآخرة في أعينهم.

***

قصة أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

[القلم: ١٧-٣٣]

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ فِيمَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْجَسِيمَةِ، وَهُوَ بَعْثُهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمُحَارَبَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أَيِ: اخْتَبَرْنَاهُمْ، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وَهِيَ الْبُسْتَانُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعِ الثِّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أَيْ: حَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لَيَجُذُّنَّ ثَمَرَهَا لَيْلًا لِئَلَّا يَعْلَمَ بِهِمْ فَقِيرٌ وَلَا سَائِلٌ، لِيَتَوَفَّرَ ثَمَرُهَا عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أَيْ: فِيمَا حَلَفُوا بِهِ. وَلِهَذَا حَنَّثَهُمُ اللهُ فِي أَيْمَانِهِمْ، فَقَالَ: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أَيْ: أَصَابَتْهَا آفَةٌ سَمَاوِيَّةٌ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، وَالسُّدِّيُّ: مِثْلَ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ، أَيْ هَشِيمًا يَبَسًا.

﴿ فَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ: لَمَّا كَانَ وَقْتُ الصُّبْحِ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْهَبُوا إِلَى الْجُذَاذِ.

﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴾ أَيْ: تُرِيدُونَ الصِرَامَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ حَرْثُهُمْ عِنَبًا.

﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴾ أَيْ: يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِحَيْثُ لَا يُسْمِعُونَ أَحَدًا كَلَامَهُمْ. ثُمَّ فَسَّرَ اللهُ عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى مَا كَانُوا يَتَخَافَتُونَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أَيْ: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تُمَكِّنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا يَدْخُلُهَا عَلَيْكُمْ!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أَيْ: قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أَيْ: جِدٍّ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: غَيْظٍ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ عَلَى الْمَسَاكِينِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أَيْ: كَانَ اسْمُ قَرْيَتِهِمْ حَرْدًا. فَأَبْعَدَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ هَذَا!

﴿ قَـٰدِرِينَ ﴾ أَيْ: عَلَيْهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ وَيَرُومُونَ.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ: فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَدِ اسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّضَارَةِ، وَالزَّهْرَةِ، وَكَثْرَةِ الثِّمَارِ إِلَى أَنْ صَارَتْ سَوْدَاءَ مُدْلَهِمَّةً، لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ; وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ: قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْرَ الطَّرِيقِ فَتُهْنَا عَنْهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ. ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا هِيَ

فَقَالُوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أَيْ: بَلْ هَذِهِ هِيَ، وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حَظَّ لَنَا وَلَا نَصِيبَ.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وقَتَادَةُ: أَيْ: أَعْدَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾! قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أَيْ: لَوْلَا تَسْتَثْنُونَ. قَالَ السُّدِّيُّ: وَكَانَ اسْتِثْنَاؤُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ تَسْبِيحًا.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ: إِنْ شَاءَ الله. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أَيْ: هَلَّا تُسَبِّحُونَ اللهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ، ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَتَوْا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ، وَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْجَعُ; وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أَيْ: يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ الْمَسَاكِينِ مِنْ حَقِّ الْجُذَاذِ، فَمَا كَانَ جَوَابُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الِاعْتِرَافَ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أَيِ: اعْتَدَيْنَا وَبَغَيْنَا وَطَغَيْنَا وَجَاوَزْنَا الْحَدَّ حَتَّى أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا، ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قِيلَ: رَغِبُوا فِي بَذْلِهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: احْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالله أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ - قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا ضَرَوَانُ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ - وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَّفَ لَهُمْ هَذِهِ الْجَنَّةَ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُمْ يَسِيرُ فِيهَا سِيرَةً حَسَنَةً، فَكَانَ مَا اسْتَغَلَّهُ مِنْهَا يَرُدُّ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَيَدَّخِرُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ، وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَاضِلِ. فَلَمَّا مَاتَ وَرِثَهُ بَنُوهُ، قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُونَا أَحْمَقَ إِذْ كَانَ يَصْرِفُ مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَّا مَنَعْنَاهُمْ لَتَوَفَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا. فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ عُوقِبُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، فَأَذْهَبَ اللهُ مَا بِأَيْدِيهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ، وَرَأْسَ الْمَالِ، وَالرِّبْحَ، وَالصَّدَقَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٌ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أَيْ: هَكَذَا عَذَابُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ، وَبَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللهُ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَنَعَ حَقَّ الْمِسْكِينِ وَالْفُقَرَاءِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ، وَبَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْجِدَادِ بِاللَّيْلِ، وَالْحَصَادِ بِاللَّيْلِ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [القلم: ٣٤-٤١].

مَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ النِّقْمَةِ حِينَ عَصَوُا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، بَيَّنَ أَنَّ لِمَنِ اتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْرَغُ وَلَا يَنْقَضِي نَعِيمُهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ أَيْ: أَفَنُسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاءِ؟ كَلَّا وَرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾! أَيْ: كَيْفَ تَظُنُّونَ ذَلِكَ؟.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يَقُولُ: أَفَبِأَيْدِيكُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ تَدْرُسُونَهُ، وَتَحْفَظُونَهُ، وَتَتَدَاوَلُونَهُ بِنَقْلِ الْخَلَفِ عَنِ السَّلَفِ، مُتَضَمِّنٌ حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدَّعُونَهُ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: أَمَعَكُمْ عُهُودٌ مِنَّا وَمَوَاثِيقُ مُؤَكَّدَةٌ، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: إِنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؟ أَيْ: قُلْ لَهُمْ: مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ الْمُتَكَفِّلُ بِهَذَا؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾.

الدروس والعبر من القصة:

١- الصدقة على المساكين سبب لثبات النعمة وزيادتها.

٢- منع حق المساكين سبب لزوال النعم.

٣- الطمع والجشع سبب لهلاك العبد في الدنيا والآخرة.

٤- المؤمن يعلم جق الله تعالى فيخرجه.

٥-الابتلاء يكون بالسراء والضراء: أي بالخير والشر وأسعد الناس

الشاكرون عند السراء الصابرون على طاعة الله ورسوله ﷺ عند الضراء [أيسر التفاسير].

٦- مشروعية التذكير بأحوال المبتلين والمعافين ليتخذ من ذلك طريق إلى الشكر والصبر [المصدر السابق].

٧- صلاح الأباء ينفع أبناء المؤمنين: فقد انتفع أصحاب الجنة بصلاح أبيهم الذي كان يتصدق على المساكين من غلة بستانه وعلامة انتفاعهم توبتهم [المصدر السابق].

❊ ❊ ❊

قصص السنة النبوية

القصة الأولى

قصة أصحاب الغار

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ»، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا

يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا»، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ» [صحيح البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

أولًا - فضل الإخلاص:

فإن إخلاصهم في العمل لله تعالى كان سببًا لخروجهم من الغار.

وكذلك الإخلاص يكون سببًا في نجاة العبد من السوء والفحشاء، كما قال الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

والإخلاص سبب نجاة العبد من الشيطان، كما قال تعالى على لسان الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

[ص:٨٢ ـ ٨٣]

والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ».

[رواه النسائي، وحسنه الألباني]

والإخلاص سبب في شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» [صحيح البخاري].

والإخلاص سبب دخول الجنة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الصافات:٤٠ ـ ٤٣].

تعريف الإخلاص: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه؛ سقط من عين الله.

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل التستري: أي شيئ أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه [انظر: مدارج السالكين].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: تغميض عين القلب عن كل شيئ سوى الله.

ثانيًا - التوسل لله بالأعمال الصالحة:

فهذا الحديث يدل على أن العبد يجوز له التوسل لله بالأعمال الصالحة، وكما قال تعالى عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٢].

فهؤلاء المؤمنون توسلوا لله بأعظم عبادة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يكفر عنهم سيئاتهم، وأن يتوفاهم مع الأبرار.

صور التوسل المشروع:

١ - التوسل بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى:

كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وسمع النبي ﷺ رجلًا يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فقال النبي ﷺ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**» [صححه الألباني].

وكان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول في دعاء الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» [صحيح البخاري].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا»، قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا» [رواه الإمام أحمد].

٢-التوسل بدعاء الأحياء من الصالحين:

فيجوز لك أن تطلب من رجل صالح أن يدعو الله تعالى لك، لحديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إني سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ» [صحيح مسلم].

وعن أبي هريرة أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما قال: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ

بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللّٰهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ»، فَقَالَ يَا رَسُولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**» [صحيح مسلم].

قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللّٰهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ**» [صحيح البخاري].

عن عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ قَال: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَّ لِي. قَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَّ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا [صحيح البخاري].

كل ذلك يدل على جواز طلب الدعاء عمومًا، وبصفة خاصة في أمور الآخرة [انظر: تعليقات الدكتور ياسر برهامي على التوسل وأحكامه عن شيخ الإسلام ابن تيمية].

صور التوسل المحرم:

١ - دعاء الأموات:

مثل البدوي، والدسوقي، والحسين، وغيرهم، وهذا من الشرك الأكبر، لأنه صرف للعبادة لغير الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**».

[صحيح، رواه الترمذي]

وهذا شرك المشركين الأوائل، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**» [صحيح البخاري].

وقال تعالى عن هؤلاء الأموات وغيرهم: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٤].

فيا أيها المسلم: هؤلاء الأموات لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا؛ فهل ينفعونك أو يضرونك؟ وقد قال الله تعالى لنبيه وحبيبه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٤٩]، فما بالك بالذين هم دون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي علَّم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قائلًا: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ» [رواه الترمذي بإسناد حسن]، لم يقل له: إذا سألت فاسأل فلان.

وهو الذي نهى عن بناء المساجد على القبور، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي لم يقم منه: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا»، قالت عائشة: فلولا ذلك أبرز قبره، إنه خشي أن يتخذ مسجدًا [متفق عليه]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» [متفق عليه]، وعن عائشة، أن أم سلمة، وأم حبيبة ذكرتا كنيسة رأينها في الحبشة، فيها تصاوير، فذكرتا ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [متفق عليه].

٢- التوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال العلماء: لا يجوز التوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا بذاته.

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: ترك الصحابة التوسل بذات أو جاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فصار كالإجماع مع وجود المقتضى، وانتفاء الموانع، فدلَّ على أن الفعل بدعة، والترك سنة [انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته - مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم بدعائهم - فليس هذا مشهورًا عند الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا؛ استسقوا، وتوسلوا، واستشفعوا بمن كان حيًّا، كالعباس، وكيزيد بن الأسود، ولم يتوسلوا، ولم يستشفعوا، ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا عند قبره، ولا غير قبره، بل عدلوا إلى البدل؛ كالعباس، وكيزيد، بل كانوا يصلون عليه في دعائهم، وقد قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا؛ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا؛ فاسقنا. فجعلوا هذا بدلًا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاه، ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل، أو السؤال به؛ فيقولون: نسألك، أو نقسم عليك بنبيك، أو بجاه نبيك، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس. وروى بعض الجهال عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عظيم**»؛ وهذا الحديث كذب ليس في شيئ من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته أو التوسل بدعائه وشفاعته؛ فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا؛ فلما لم يفعل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ شيئًا من ذلك، ولا دعوا بمثل هذه الأدعية - وهم أعلم منا، وأعلم بما يحب الله ورسوله، وأعلم بما أمر الله به رسوله من الأدعية، وما هو أقرب إلى الإجابة منا، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دلَّ عدولهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول؛ أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكنًا [انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام].

٤- تعرف على الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة:

فإن العبد يمر في حياته بابتلاءات ومحن، ولا ينجو منها إلا بالإخلاص لله تعالى، ودعائه، والتوسل إليه بشتى أنواع العبادات الصالحة، وقد أوصى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال له: «**احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»، وفي رواية: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»، ومعنى: «**احْفَظْ اللَّهَ**» أي: احفظ حدود وحقوقه، وأوامره ونواهيه؛ فتقف عند الأمر ممتثلًا، وعند النهي مجتنبًا، وعند الحقوق مؤديًا، وعند الحدود واقفًا، ومعنى: «**يَحْفَظْكَ**» أي: أن من حفظ حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، وراعى حقوقه؛ حفظه الله تعالى؛ لأن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

حفظ الله تعالى لعبده نوعان:

أحدهما- حفظه له في مصالح دنياه؛ كحفظه في بدنه، وولده، وأهله، وماله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هم الملائكة، يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء بالقدر خلوا عنه»، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر؛ خليا بينه وبينه»، وقال مجاهد: «ما من عبد إلا له ملك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال: وراءك، إلا شيئًا أذن الله فيه؛ فيصيبه» [انظر: جامع العلوم والحكم].

٤ - لا يرفع الكرب إلا الله تعالى:

كما قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]، وقال تعالى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم يستغيثون بالله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٦].

والاستغاثة بغير الله تعالى شرك، مثل قول البعض: أغثني يا بدوي، أو أغثني يا دسوقي، ونحو ذلك، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ** عَزَّوَجَلَّ» [رواه الطبراني، وحسنه الهيثمي].

٥ - ما نزل بلاء إلا بذنب، ما رفع إلا بتوبة:

أخذ العلماء من هذا الحديث أنه إذا نزل بالأمة بلاء، أو نازلة؛ فإنه لا بد من توبة الجميع لله تعالى، كل واحد بحسب ذنبه، كي يُرفع البلاء عن الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ومعنى الآية: أي أن الله تعالى لا يرفع البلاء حتى نغير ما بأنفسنا بترك المحرمات، وفعل الواجبات، قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رفع إلا بتوبة».

٦ - فضل بر الوالدين:

بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرجل الصالح الذي كان بارًّا بوالديه، ولا يقدم عليهم زوجة ولا ولدًا، وقد أمر الله تعالى ببر الوالدين، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٣ ـ ٢٥]، وقد أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوالدين؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ [صحيح البخاري].

وقد ورد في فضائل بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها:

قوله ﷺ: «رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الْوَالِدِ وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ» [السلسلة الصحيحة].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ».

[متفق عليه]

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ» [صحيح البخاري].

وقال ﷺ: «لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَهُنَّ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ».

[رواه البخاري في «الأدب المفرد»، بإسناد حسن]

وقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ» [صحيح مسلم].

وأمر ﷺ ببرهم بعد موتهم؛ بصلة من لم يوصل إلا بهم: «إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيه» [صحيح مسلم].

وقد حذَّر الله تعالى من عقوق الوالدين، وتوعَّد من فعل ذلك بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ

أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» [صحيح، رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

وقال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»، وذكر منها: «عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» [متفق عليه].

وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ» قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ» [صحيح مسلم]

وقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» [صحيح مسلم].

واعلم أنك يا عبدالله مهما بالغت في البر؛ فلن توفِّهما حقهما، فقد قال النبي ﷺ: «وَأَطِعْ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُنْيَاكَ فَاخْرُجْ مِنْهَا». [حسن، رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

كيف تبر والديك؟

بهذه النقاط التالية تعرف كيفية بر الوالدين:

١ - طاعتهما في كل شيء عدا معصية الله، وما لا تقدر عليه، قال تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٤ ـ ١٥].

٢- **إدخال السرور عليهما، فعن عبدالله بن عمرو قال:** جاء رجل إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال: «**ارجع إليهما، وأضحكهما كما أبكيتهما**» [صحيح، رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

٣- **تفضيلهما على الزوجة والأولاد، لقول النبي** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما سأله السائل: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ «**ثُمَّ أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبُوكَ**».

٤- **عدم إيذائهما ولو بأقل من كلمة، كالتأفف، أو بالإشارة؛** لقول الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

٥- **وجوب النفقة عليهما إن كانا محتاجين،** أما إن كانا موسرين غير محتاجين فليست واجبة؛ لقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أنت ومالك لأبيك**».

[صحيح، رواه ابن ماجة]

٦- **قضاء الدين عنهما في حياتهما وبعد مماتهما؛** لقوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للسائل الذي سأله قائلًا: إِنَّ أَبِي أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ رُكُوبَ الرَّحْلِ وَالْحَجُّ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ أَفَأَحُجُّ عَنْهُ. قَالَ: «**أَنْتَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ عَنْهُ أَكَانَ ذَلِكَ يُجْزِئُ عَنْهُ**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَاحْجُجْ عَنْهُ**» [صحيح، رواه أحمد].

٧- **قضاء الصوم عنهما بعد موتهما**؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**» [صحيح البخاري].

٨- **قضاء النذر عنهما**؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ، فقال: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا نَذْرٌ. فَقَالَ: «**اقْضِهِ عَنْهَا**» [صحيح البخاري].

٩- **الاستغفار لهما؛ فقد أراد النبي** ﷺ أن يستغفر لأمه، ولم يأذن الله له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي**» [صحيح مسلم]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ فَيَقُولُ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**» [رواه أحمد، بإسناد حسن].

١٠- **الحج والعمرة عنهما في حياتهما إن كانا لا يقدران على ذلك صحيًّا، وبعد مماتهما**؛ فعن أبي رزين العقيلي أنه أتى النبي ﷺ، فقال: إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، فقال: «**حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ**» [رواه أحمد، بإسناد حسن].

٨- فضل العفة والاستعفاف:

قال العلماء: الرجل الذي ترك الزنا هو أفضلهم؛ لأنه صبر عن الحرام، وهذا الرجل تقي؛ لأنه لو كان غير ذلك لقال لها: أتقولين لي: اتق الله، وأنت

بين يدي، وقد أخذت مائة دينار، وأنت راضية؟ وفتنة النساء من أعظم الفتن، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ**» [صحيح البخاري]، وقال: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**» [صحيح مسلم].

فالاختلاط بين الرجال والنساء سبب كل بلية ورذيلة، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة والخاصة، ومن أكبر أسباب انتشار الفواحش والزنا، وقد نهى الله تعالى عن الاختلاط؛ فقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: ويفهم من مفهوم المخالفة؛ أن الاختلاط وعدم الاحتجاب أنجس وأقذر لقلوبكم وقلوبهن.

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**» فَقَال رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ الله أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: «**الْحَمْوُ الْمَوْتُ**»؛ يعني: الموت أفضل من دخول هؤلاء على النساء، وكم من فاحشة ارتكبت بسبب دخول أقرباء الزوج على زوجته، فالله المستعان؛ وكل ذلك سببه الاختلاط، وعدم الاختلاط من أعظم أسباب حفظ الأعراض. وقد

خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا من المسجد وقد اختلط النساء مع الرجال في الطريق، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ**»؛ فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتى أن ثوبها يتعلق به من لصوقها [صحيح، رواه أبو داود].

٩- شريعة الله الحكيم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

تأمل في هذه الآية جيدًا؛ فإن الله تعالى لم يقل: لا تفعلوا، بل قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾؛ أي: لا تقترب من الأشياء التي توقعك في الزنا، فالشيطان لا يأمرك بالزنا، ولكن يستدرجك في حباله وشراكه، ويضع لك الخطوات التي تسلكها، ويزين لك المعصية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

فحرم الله تعالى الأسباب التي توقع العبد في الزنا، فأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين رجالًا ونساء بغض البصر؛ قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٠ـ٣٢].

وأمر بالحجاب؛ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وحرَّم الاختلاط كما تقدَّم.

وحرَّم التبرُّج، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، الْعَنُوهُنَّ؛ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ**».

[رواه الإمام أحمد وصححه الألباني]

وحرَّم الجلوس مع المرأة من غير محرم؛ فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَخْلُوَنَّ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ**» [رواه أحمد، وهو صحيح].

وحرم سفر المرأة من غير محرم؛ فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**» [صحيح البخاري].

وحرَّم خروج المرأة مستعطرة إلى الشارع ليشم ريحها الرجال؛ فقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ» [رواه النسائي، وهو صحيح].

وحرم على المرأة الخضوع بالقول، وهو إلانة الكلام، وترقيق الصوت؛ فقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

١٠- فضل الصدقة على النساء:

إن الصدقة على المرأة التي فقدت عائلها لمن أعظم الصدقات؛ لأن في التصدق عليها إعفاف لها عن الحرام، وإبعاد لشياطين الإنس عنها؛ فقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ» [صحيح البخاري]، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ»، وأشار بالسبابة والتي تليها [صحيح، رواه أبو داود].

١١- الأمر بإعطاء الأجير حقه:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ».

[صحيح الجامع]

١٢- تنمية الإنسان مال غيره بدون إذنه:

فالرجل الثالث قد تصرَّف في أجر الأجير؛ فنماه، وباع واشترى، واكتسب الأموال الطائلة، دون أن يأذن له الأجير، وهذا يسمى في الفقه الإسلامي

بتصرف الفضولي؛ والفضولي هو الذي معه مال لأحد الناس؛ فيتصرف فيه بتنميته؛ فيبيع ويشتري، ويكسب المال ويعطيه لصاحب المال، وقد مال البخاري إلى جواز هذا الأمر، «**عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ وَكَانَ لَوْ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ**» [صحيح البخاري]، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ يَشْتَرِي لَهُ أُضْحِيَّةً بِدِينَارٍ فَاشْتَرَى أُضْحِيَّةً فَأَرْبِحَ فِيهَا دِينَارًا فَاشْتَرَى أُخْرَى مَكَانَهَا فَجَاءَ بِالْأُضْحِيَّةِ وَالدِّينَارِ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**ضَحِّ بِالشَّاةِ وَتَصَدَّقْ بِالدِّينَارِ**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني].

وقد اختلف الفقهاء في حكم العقد الذي يوقعه الفضولي للمال؛ فذهب الحنفية والمالكية – على قول عندهم– والشافعي في القديم؛ إلى أن الفضولي إذا تصرف ببيع أو شراء؛ فإن تصرفه هذا موقوف على إجازة المالك، فإن أجازه نفذ وإلا فلا.

وذهب المالكية – على قول عندهم– والشافعي في الجديد، والحنابلة؛ إلى أن تصرف الفضولي بالبيع أو الشراء باطل، حتى وإن أجازه المالك.

واستثنى الحنابلة ما لو اشترى لغيره شيئًا في ذمته بغير إذنه، فيصح إن لم يسمِّ المشتري من اشترى له في العقد؛ بأن قال: اشتريت هذا، ولم يقل: لفلان؛ فيصح العقد، سواء نقد المشتري الثمن من مال الذي اشترى له، أو من مال

نفسه، أو لم ينقده بالكلية؛ لأنه متصرف في ذمته، وهي قابلة للتصرف، والذي نقده إنما هو عوض عما في الذمة، فإن سماه في العقد لم يصح إن لم يكن أذن.

وذهب المالكية - في قول ثالث عندهم - إلى أن تصرف الفضولي بالبيع أو الشراء باطل في العقار وجائز في العروض، أي يصح تصرفه في المنقولات دون غيرها كالأراضي والبيوت [انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية].

والراجح إن شاء الله تعالى: أنه يجوز تصرف الفضولي إن كان في صالح المالك، وإن كان في غير صالح المالك؛ فإنه يغرم ما يخسره؛ لأن المالك لم يأذن له، فإن كان المالك قد أذن له؛ فلا غرامة عليه، والله تعالى أعلم.

١٤- الإحسان في معاملة الأجير:

بأن تجالسه، وتأكل معه، ولا تتعالى عليه، بل عليك أن تتواضع معه، فلعله أفضل عند الله تعالى منك، وينبغي أن تحمد الله تعالى، وتشكره على فضله، فقد منَّ الله تعالى عليك ولم تكن أنت هذا الأجير، والأفضل أن تتفق معه على الأجر قبل البدء في العمل، وإن استطعت أن تعطيه أكثر من حقه؛ فافعل، ولا تحمله فوق طاقته، بل تعينه وتساعده.

وَقَال أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلاَ: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلاَ: أَلَّا صَنَعْتَ**» [رواه البخاري].

١٥- ماذا لو كنت الرابع:

قال أهل العلم: لو كان أصحاب الغار أربعة ما انفرجت الصخرة عنهم حتى يدعو الرابع بعمل صالح خالص لله عَزَّوَجَلَّ، ولو كان في الغار واحدًا فقط، ثم دعا بعمل صالح لانفرجت الصخرة، وخرج سالمًا، وهنا يطرح سؤال نفسه: ماذا لو كنت الرابع؟ ماذا كنت ستقول؟

هل لك من العمل الصالح الخالص لله تعالى لتدعو به؟ ضع نفسك الآن الرابع بينهم، وأعد لمثل هذا الموقف عملًا صالحًا خالصًا لوجه الله تعالى تذكره في مثل هذه المحنة.

***

القصة الثانية
سحابة تؤمر أن تسقي أرضا بعينها

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلَانٌ لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ» [صحيح مسلم].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١- الإخلاص:

وتأمل قول هذا العبد الصالح المخلص: «أما إذا قلت هذا»؛ فإنه إن لم يذكر الرجل سبب سؤاله، ولو أنه ذكر له ما سمعه في السحاب؛ لما أجابه هذا العبد الصالح عن سؤاله.

٢- ثبوت كرامات الأولياء:

إن تسخير السحاب لهذا الرجل الصالح لكرامة له من الله عَزَّوَجَلَّ، وأهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات للأولياء، والأولياء هم من قال الله تعالى فيهم:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢ - ٦٣].

فذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات أن أولياء الله تعالى لهم صفتان؛ هما: الإيمان والتقوى، فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي، وكل من ادَّعى ولي لله تعالى ولم يتصف بالإيمان والتقوى؛ فهو كاذب في دعواه، بل هو ولي للشيطان، والإيمان هو: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره، حلوه ومره، والإيمان قول وعمل، لا يصح الإيمان بدون القول، ولا يصح بدون العمل، لا بد من تواجد القول مع العمل؛ ولهذا قال الله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١ - ١١]، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الصفات أيضًا أو بعضها في المصلين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ

مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [المعارج:١٩- ٣٥].

والإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت ألف شيخ من علماء الأمصار؛ يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويتفاضل أهله فيه». **وقال الحسن البصري**: «الإيمان ما وقر في القلب، وصدَّقه العمل». **وقال أيضًا**: «الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان - أي: بالقلب، وعمل بالجوارح والأركان».

أما التقوى؛ فهي: فعل الواجبات، وترك المحرمات، قال طلق بن حبيب: «التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله؛ تخاف عقاب الله»، وسئل الإمام الشافعي عن الرجل يمشي على الماء، فقال: «إذا رأيت الرجل يمشي على الماء، ويطير في السماء؛ فاعرض عمله على الكتاب والسنة؛ فإن وافق الكتاب والسنة؛ تكون كرامة، وإن خالف عمله الكتاب والسنة؛ فهذا من الشيطان».

٣ -التوسط في كل شيئ:

فإن هذا الرجل الصالح كان يتصدَّق بثلث نتاج أرضه، ويرد إلى الأرض ثلثًا، ويأكل هو وعياله ثلثًا، فقد قال رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ» [صحيح مسلم]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» [صحيح البخاري].

٤ - فضل الصدقة وإخراج الزكاة:

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦-٩٧].

وقال جل شأنه في أكثر من موضع في كتابه العظيم: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» [صحيح البخاري].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ» [صحيح البخاري].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

[صحيح البخاري]

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ فَالْإِبِلُ قَالَ وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ قَالَ وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ

لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلَا جَلْحَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ فَالْخَيْلُ قَالَ الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنِوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي ظُهُورِهَا وَلَا رِقَابِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ وَكُتِبَ لَهُ عَدَدَ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٌ وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ فَالْحُمُرُ قَالَ مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمُرِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاذَّةُ الْجَامِعَةُ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]» [صحيح مسلم].

***

القصة الثالثة
قصة البغي التي غفر الله لها

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ» [صحيح مسلم].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - الإخلاص سبب لمغفر الذنوب:

فإخلاص هذه المرأة في سقايتها لهذا الكلب في الصحراء، ولا يراها أحد إلا الله تعالى، ولا تنتظر شكرًا من أحد، والكلب ممتهن عادة، ولا يلتفت إليه أحد.

٢ - الرحمة سبب لرحمة الله تعالى:

فهذه المرأة لما رأت الكلب يلهث من شدة العطش، رحمته؛ فنالت رحمة الله تعالى، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» [صحيح، رواه الترمذي]. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يَغْفِرْ اللهُ لَكُمْ» [رواه الإمام أحمد في صحيح الجامع].

٣ - فضل سقيا الماء:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس صدقة أعظم أجرًا من ماء**» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»]؛ فإن كانت سقيا الكلاب فيها مغفرة للذنوب، فكيف بسقيا الناس عامة، وسقيا المسلمين خاصة.

٤ - الله تعالى هو الشكور:

لقد كانت هذه المرأة بغي - أي: تجاهر بالزنا، ويكون الزنا مهنتها عياذًا بالله تعالى، فلو سقت كلاب الأرض لا يمكن أن يخطر لها ببال أن سقيها لهم سيكون سببًا لمغفرة ذنوبها، ولكن الله تعالى شكور، يغفر الذنب العظيم، ويقبل القليل من العمل ما دام خالصًا لوجهه الكريم.

٥ - لا تحقرن من المعروف شيئًا:

لا يدري المسلم أي عمل يدخله الجنة، فلا تحقرن من المعروف شيئًا، فرب عمل حقير تعظمه النية، ورب عمل كبير حقرته النية؛ وقد أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أول من تسعر بهم النار ثلاثة؛ مجاهد، وعالم، ومنفق، وكان سبب دخولهم النار؛ أنهم عملوا هذه الأعمال لغير الله تعالى، ومن أجل الحمد والثناء من الناس، فلا تحقرن من المعروف شيئًا، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ اللهُ له**» [صحيح البخاري]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَفَعَ**

حَجَرًا مِنَ الطَّرِيقِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ» [صحيح الجامع]، وقال رسول الله ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ» [صحيح الجامع]، وقال رسول الله ﷺ: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ» [صحيح البخاري].

٦ - الزنا من أكبر الكبائر:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وقال ﷺ: «مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» [رواه أحمد، وهو صحيح لغيره].

فيجب على من فعل هذه الفاحشة - أو غيرها من الفواحش الظاهرة والباطنة ـ أن يتوب إلى الله تعالى، وأن يقبل على طاعته، وكثرة الاستغفار، حتى يتوب الله عليه، ولا تنزل به عقوبة الله تعالى، وفي «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ رأى الزناة يعذبون في تنور، تأتيهم النار من أسفلهم، وسمع صراخهم.

٧ - في كل ذي كبد رطبة أجر:

قال النبي ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَا خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ

الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا فَقَالَ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» [صحيح البخاري].

فاحرص أيها المسلم أن تكون من أهل الرفق والرحمة مع الناس عامة، والمسلمين خاصة، ومع الحيوانات، ومع النباتات، واعلم أن ما تفعله بنية خالصة لله تعالى سوف تجازى به أحسن الجزاء، وتعطى به أفضل العطايا.

***

القصة الرابعة
قصة المرأة والهرة

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ». [صحيح مسلم].

وفي رواية: «ربطتها».

وفي رواية: «تأكل من حشرات الأرض».

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - حرمة تعذيب الحيوان في الإسلام:

لقد ظهر في السنوات الماضية من قاموا وادَّعوا أنهم حماة حقوق الحيوان، على الرغم من أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم هم من يدافع عن حقوق الحيوان لا يعترفون بحقوق البشر، فقد علمنا النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرحمة بالحيوان، والرفق به، وذلك منذ أكثر من ألف أربعمائة عام، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَحِمَ، وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [صحيح مسلم].

ونهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صبر البهائم، قال العلماء: صبر البهائم؛ أن تحبس وهي حية؛ لتقتل بالرمي ونحوه، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن تصبر البهائم [متفق عليه].

ومرَّ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على قوم نصبوا دجاجة يرمونها، فقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من فعل هذا؛ إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من فعل هذا [متفق عليه].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مَرَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، فَقَالَ: «**أَفَلَا قَبْلَ هَذَا تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ**» [رواه الطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني].

٢ - تعذيب الحيوان من أسباب دخول النار:

والشاهد على ذلك حديث هذه القصة؛ إذ جاء في إحدى رواياته أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**» [صحيح البخاري].

٣ - الإيمان بالجنة والنار:

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة التي إذا أنكر منها ركن واحد لكفر منكره، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأله عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» [صحيح مسلم].

وإن الإيمان بالجنة والنار من الإيمان باليوم الآخر، وهما موجودتان الآن، ولا تفنيان أبدًا، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١ - ١٣٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُعِدَّتۡ﴾؛ أي: خلق، فهما موجودتان الآن، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» [صحيح البخاري].

٤ - حكم حبس الحيوان؟

قال أهل العلم بجواز حبس الحيوان؛ لكن بشرطين:

الشرط الأول- إطعامه، وسقياه، ومداواته.

والشرط الثاني- عدم تعذيبه.

٥ - هذه المرأة كانت مؤمنة:

لأنها لو كانت كافرة؛ فإنه لا ينفعها في الآخرة رحمة الهرَّة أو تعذيبها، فالكفار من أهل النار هم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

٦ - لا تستصغر المعصية:

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه المعصية ليست صغيرة، بل صارت بإصرارها كبيرة، وليس في الحديث أنها تخلَّد في النار.

[انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج]

فالإصرار على الصغير يجعلها كبيرة، واستصغار الذنب فيه جهل بالخالق جَلَّ وَعَلَا، **قال أحد السلف**: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى من عصيت.

وقد قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ**»[صحيح البخاري].

فكلما صغرت المعصية في عينك؛ كبرت عند الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

٨ - عظم أجر الإحسان إلى الحيوان:

بمفهوم المخالفة؛ لو أن أحدًا أحسن إلى حيوانٍ ما، فأطعمه، وسقاه، وداواه، ولم يعذبه، وأخلص في عمله هذا لله تعالى؛ فإن جزاءه الجنة بإذن الله تعالى، وقد مرَّ معنا في قصة البغي التي سقت كلبًا، فشكر الله تعالى لها، فغفر الله تعالى لها ذنوبها، وهكذا كل من أخلص في عمله لله تعالى، حتى ولو كان

هذا العمل صغيرًا؛ فلا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلق أخاك بوجه طلق، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

***

القصة الخامسة
الرجل الذي قتل مائة نفس

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ» [صحيح مسلم].

وفي رواية: «فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَأَى بِصَدْرِهِ ثُمَّ مَاتَ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا» [صحيح مسلم].

وفي رواية: «فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي» [صحيح مسلم].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

أولا- سعة رحمة الله تعالى:

فهذا الحديث يجعل العبد لا ييأس من رحمة الله تعالى، حتى وإن فعل جميع الكبائر والصغائر، فإن الله تعالى لا يرد تائبًا أبدًا، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**» [صحيح، رواه الترمذي]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» [صحيح مسلم].

وقال أحد السلف:

يـا كـبـير الذنـب عـفـو الله ... مـن ذنـبـك أكـبر

أعـظـم الأشـيـاء في جـانـب عـفـو الله تغفر

وقال آخر:

يا رب إن عظمت ذنـوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يـرجـوك إلا محسن ... فمن الذي يرجو ويدعو المجرم

مـا لي إليـك وسيلة إلا الرجا ... وجمـيـل عـفـوك ثـم إني مسلم

ثانيًا- المبادرة بالتوبة:

فهذا الرجل الذي قتل المائة نفس لو لم يبادر بالتوبة؛ لعرَّض نفسه لعقاب الله تعالى، ولكن نفعته المبادرة بالتوبة، ونفعه رجوعه إلى الله تعالى، فبادر أخي الحبيب وبادري أختي المسلمة بالتوبة قبل فوات الأوان، فقد قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

فكل عبد مات ولم يتب إلى الله تعالى فإنه قد قال هذا الكلام عند الموت، وتأمَّلَ الرجوع إلى الدنيا، لا من أجل جمع الأموال، وقضاء التجارات، والاعتلاء في المناصب، ولكن ليعمل صالحًا، وذلك حينما يرى ما قدَّم، ويأتي الجواب من الله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾؛ لأن الله تعالى أمهله في الدنيا سنوات عمره كلها، ولم يعمل صالحًا كما عمل الصالحون، فبادر أيها المسلم وأيتها المسلمة؛ فإن الموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل.

قال أحدهم:

سألت الدار تخبرني عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لي أناخ القوم أيامًا وقد رحلوا
فقلت فأين أطلبهم وأين منازل نزلوا
فقالت بالقبور وقد لقوا والله ما فعلوا
أناس غرهم أمل فبادرهم به الأجل
فنوا وبقي على الأيام ما قالوا وما عملوا
وأثبت في صحائفهم قبيح الفعل والزلل
فلا يستعتبون ولا لهم ملجأ ولا حيل
ندامى في قبورهم وما يغني وقد حصلوا

ثالثًا - شروط التوبة:

وشروطها هي: الإخلاص لله تعالى، والإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، ورد الحقوق إلى أهلها، وأن تكون قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها. وهذا العبد قد جاء بشروط التوبة جميعها، فتاب الله تعالى عليه، وقبله، وجعله من أهل الجنة.

رابعًا- هذا الرجل بعد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ذلك لأن الرهابنية كانت بعد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ابتدعها أعدائه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، فلو أنهم رعوها حق رعايتها لآمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولًا، إلا أنهم غيروا في دين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحرفوا كلام رب الأرض والسماء، ولم يلتزموا بما فرضوه على أنفسهم من الرهبنة، فقد بشرهم نبيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فلما طال انتظارهم لهذا النبي، وطال عليهم الأمد؛ قست قلوبهم، ونسوا حظًّا مما ذكروا به؛ بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]، ولذلك قال الله تعالى واصفًا لهم بالظالمين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف:٧-٨].

خامسًا – الراهب قتله جهله:

ذلك؛ لأنه أفتى القاتل بأنه ليست له توبة بغير علم؛ فكان سبب قتله جهله، ولو كان عنده قدر من الذكاء، لما قال له: ليست لك توبة؛ لأنه سفَّاك للدماء، ولكن كان من الأحرى به أن يقول: لا أعرف، أو: ابحث عن أحدٍ أعلم مني، أو أي مخرج آخر.

سادسًا – فضل العلماء على العباد:

العلماء هم للناس كالشمس للدنيا، والعافية للأبدان، وهم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى؛ الذين ينيرون الطريق للناس، وهم الدليل على الله لعباده.

وقد أمر الله تعالى بسؤال أهل العلم، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

وهم ورثة الأنبياء، كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» [صحيح الترغيب].

أما الراهب العابد؛ فإنما يكون نفعه لنفسه، وقد يعبد الله تعالى على جهل، أما العالم؛ فإنما يكون نفعه متعدٍّ، لنفسه ولغيره من الناس؛ وذلك بدعوتهم إلى الله تعالى، والتوبة إليه، ويعلمهم أمور دينهم، ولذلك الشيطان يفرح بموت العالم أكثر من موت ألف عابد؛ لأن العالم هو الذي يفسد على

الشيطان إضلال الناس، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» [صحيح، رواه الترمذي].

سابعًا - فضل التوبة:

فهذا القاتل لما تاب إلى الله تعالى؛ غفر الله له، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ» [صحيح الجامع].

وقال أيضًا: «لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» [صحيح مسلم].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

ثامنًا - الإيمان بالملائكة:

الملائكة خلقوا من نور، وهم لا يأكلون، ولا يشربون، وإنما خلقوا للعبادة فقط، ولا يعصون الله ما أمرهم، ولا يفترون عن العبادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

ولكل ملك وظيفة لا يتركها، فمنهم من وُكِّل بالوحي، ومنهم من وكل بالمطر، ومنهم من وكل بقبض الأرواح، ومنهم من وكل بالنفخ في الصور، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب؛ التي في الحديث، ونؤمن أن العبد الصالح عند الموت تأتيه ملائكة الرحمة، وتبشره بالجنة والرضوان، والعبد الكافر والمنافق والفاجر تأتيه ملائكة العذاب، وتبشره بسخط الله وعذابه، كما جاءت الأحاديث بذلك.

تاسعًا- الملائكة تأتي في صورة إنسان:

فقد جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في هيئة الصحابي الجليل دحية الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لايرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... إلى آخر الحديث، وفي آخره قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه جبريل آتاكم يعلمكم أمور دينكم**» [صحيح مسلم].

عاشرًا - هجرة البيئة التي تكثر فيها المعاصي:

فلابد للتائب أن يهجر البيئة التي كان يعصي الله تعالى فيها، ويهجر أصحاب السوء، وهذا من أعظم الأسباب المعينة على التوبة، فقد أوصى العالِمُ التائبَ بأن يذهب إلى قرية كذا وكذا؛ فإن بها أناس صالحون، وأمره أن يعبد

الله تعالى معهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ» [رواه الإمام أحمد].

الحادي عشر - صدق هذا الرجل؛ فصدقه الله تعالى:

لقد صدق هذا الرجل في توبته وقد جاء في الحديث: أنه نأى بصدره؛ أي: نهض، وزحف بصدره، وهو يحتضر إلى الأرض التي فيها أناس صالحون، وقد قال النبي ﷺ: «إِنْ تَصْدُقْ اللَّهَ يَصْدُقْكَ» [صحيح، رواه النسائي].

الثاني عشر - القتل من كبائر الذنوب:

القتل من أعظم الكبائر عند الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣].

وقال رسول الله ﷺ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» [حسن، رواه النسائي]، وقال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» [صحيح البخاري]، وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا».

[صحيح، رواه أبو داود]

الثالث عشر- إذا تاب القاتل هل يستحق هذا الوعيد:

قال العلامة ابن عثيمين: الجواب: لا يستحق الوعيد بنص القرآن؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وهذا واضح أن من تاب حتى من القتل، فإن الله تعالى يبدل سيئاته حسنات، وكذلك حديث قاتل المائة، فانظر كيف كان من بني إسرائيل، فقبلت توبته، مع أن الله جعل عليهم آصارًا، وأغلالًا، وهذه الأمة رُفع عنها الآصار والأغلال، فالتوبة في حقها أسهل، فإذا كان في بني إسرائيل، فكيف بهذه الأمة؟

وأما حق المقتول فلا سبيل إلى التخلص منه في الدنيا، فإن تاب توبة نصوحًا؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ بفضله يتحمل عن القاتل، ويعطي المقتول رفعة في الدرجات في الجنة، أو عفوًا عن السيئات؛ لأن التوبة الخالصة لا تبقي شيئًا، والدليل على هذا الآية السابقة [شرح العقيدة الوسطية].

الرابع عشر- يخرج من الوعيد من نفَّذ الحدود:

ومعنى هذا: أنه لو حكم على شخص ما بالقتل؛ لأي سبب كان، ونفَّذ السياف الحكم؛ فإن هذا لا يكون من أهل هذه الآية السابقة، نعم هو قتله

متعمِّدًا، إلا أنه مأمور بإقامة الحدود، وطالما حكم على المقتول بالقتل؛ فلا شيئ على القاتل، بل ربما أُجر على ذلك من الله تعالى.

***

القصة السادسة
الغلام والراهب

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ

وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ

قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ» [صحيح مسلم].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - الساحر كافر:

هكذا قال أهل العلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك لأنه يدَّعي علم الغيب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ...» [صحيح البخاري].

والموبقات؛ أي: المهلكات. وحد الساحر ضربة بالسيف، ويحرم إتيان السحرة والكهان، فقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» [صحيح مسلم]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ سَاحِرًا أَوْ كَاهِنًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ».

[حديث صحيح]

٢ - حرص الكفار والمجرمين على تعليم الناس الباطل:

فقد طلب الساحر من الملك أن يأتيه بغلام يعلمه الكفر والسحر؛ لإيذاء الناس، فليستح أهل الحق، وليكونوا أحرص الناس على تعليمهم الحق وأمور دينهم؛ فهم أولى بذلك.

٣ - الحق نور:

فالغلام حينما سمع كلام الراهب أعجب به، وأثر في قلبه، وانشرح به صدره، وهكذا كل صاحب حق؛ فهو مسموع ومعروف؛ لأن الحق أبلج؛ أي: واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

٤ - جواز التعريض والكذب أحيانًا:

والتعريض وسط بين الصدق والكذب، وهو إلى الصدق أقرب، ومن الكذب أبعد؛ وهو: قول المعرض كلامًا يحتمل أكثر من معنى بنية أن يفهم المتحدث إليه خلاف الصواب، وهو جائز لا شيئ فيه طالما أنه في مصلحة المسلم؛ ففي الصحيحين من حديث كعب بن مالك أنه قال: «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها»، وهذا لفظ البخاري، ولا يجوز فيما لا يحل؛ كالتعريض بقذف المحصنات، أو السب، أو غير ذلك من المحرمات.

لذلك قال الراهب للغلام كما في الحديث: «إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ»، هذا عن التعريض.

أما الكذب فيجوز أيضًا في بعض الحالات، فعن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَحِلُّ الْكَذِبُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ يُحَدِّثُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا وَالْكَذِبُ فِي الْحَرْبِ وَالْكَذِبُ لِيُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ» [صحيح دون قوله: «ليرضيها»، رواه الترمذي].

٥ - أيهما أحب إلى الله؛ أمر الراهب أم الساحر؟

أمر الراهب أحب إلى الله تعالى، فالراهب كان على الإيمان بالله تعالى، وأما الساحر فكان على الكفر، والله تعالى يحب الإيمان وأهله، ويكره الكفر وأهله، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وقد أحبَّ الغلام أن يعرف من على الحق منهما، فقال كما في الحديث: «إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا» [صحيح مسلم].

٦ - التواضع:

فقد كان من أخلاق الراهب أن تواضع للغلام؛ وذلك لما عرف بأمر الدَّابة، فقد جاء كما في الحديث: «فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي».

٧- النصح للناس:

عن تميم الداري، أن رسول الله ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: «لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» [صحيح مسلم].

وقد قال الراهب للغلام كما في الحديث: «قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ»، ينصحه ألا يدل عليه، وينبهه أنه سوف يبتلى؛ لأن الله تعالى يبتلي المرء على قدر دينه، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ حَتَّى يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ذَاكَ فَإِنْ كَانَ صُلْبَ الدِّينِ ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ ذَاكَ وَقَالَ مَرَّةً أَشَدُّ بَلَاءً وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ ذَاكَ وَقَالَ مَرَّةً عَلَى حَسَبِ دِينِهِ قَالَ فَمَا تَبْرَحُ الْبَلَايَا عَنْ الْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ فِي الْأَرْضِ يَعْنِي وَمَا إِنْ عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» [حسن، رواه أحمد].

ولا بد من الاختبار؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وحتى يكفر الله تعالى ذنوب العارفين له الدَّالِّين عليه، ويرفع لهم في درجاتهم، فقد قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

٨ - الحث على طلب العلم:

فالعلم هو طريق معرفة الحق من الباطل، وما أمر الله تعالى نبيه أن يسأل الزيادة من شيء؛ إلا العلم، قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، والعلم من السبل التي يسهل الله تعالى على سالكها طريقًا إلى جنته، فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» [صحيح مسلم]. وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» [صحيح البخاري].

٩ - قوة إيمان الغلام واعتقاده:

لما عرف الغلام الحق، سهل الله تعالى له طرق الخير، وجعله الله تعالى شافيًا بإذنه سبحانه من الأمراض، ولم يتكبر الغلام، ولم يضل أو يزل عن الحق؛ لأنه عرف الله حقًّا، وكان كلما طلب منه أحد أن يشفيه يقول له كما في الحديث: «**إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ**» [صحيح مسلم]، وهذا من قوة إيمانه واعتقاده، فالله تعالى هو الذي بيده المرض والشفاء، قال الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم الخليل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠].

ولابد للمريض أن يأخذ بالأسباب، فيتداوى ولا يترك التداوي، ويعتقد في نفس الوقت أن الله تعالى هو الذي بيده الشفاء، وأن هذا الدواء ما

هو إلا سبب، ربما ينفع، وربما لا ينفع، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً**» [صحيح، رواه أبو داود].

١٠- ثبات أهل الحق عليه:

إن أهل الحق في كل زمان ومكان هم أعظم الناس صبرًا وثباتًا على أقوالهم ومعتقداتهم،وإن أصابهم في سبيل ذلك ما أصابهم، وهذا هو الثبات على الحق، ولقد كان الثبات على الحق سيما أهل الحق منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية المباركة حين جهر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوته فاستجاب له نفر قليل، فابتلوا وعذبوا وساومهم الأعداء؛ ليرتدوا عند دينهم؛ فما زادهم ذلك إلا ثباتًا واستمساكًا بالحق الذي هداهم الله إليه. ألم تر إلى أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سأله هرقل - ملك الروم - عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟! فقال ـ وكان وقتها مشركًا -: لا، قال هرقل: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

وما موقف الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في فتنة خلق القرآن بخفي عنا، يعرفه القاصي والداني، ولا بد لأهل الإيمان من الثبات على الحق.

١١- عوامل وأسباب الثبات على الحق:

إن للثبات على الحق عوامل وأسبابًا تساعد عليه، نذكر منها على سبيل المثال والإشارة ما يلي:

أ- اللجوء إلى الله و إعلان الافتقار إليه ودعاؤه:

فليس بالعبد غناء عن ربه طرفة عين، فإن لم يثبته ربه؛ ضل وهلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤].

ولأجل هذا كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو ربه أن يثبت قلبه على دينه، وكثيرًا ما كان يقسم فيقول: «لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ» [صحيح البخاري].

ب- تدبر القرآن ومدارسته والعمل به:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢]، وقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:١٠٢].

جـ- العمل بطاعة الله والكف عن معاصيه:

فالطاعات أغذية للقلوب، كما أن المعاصي سموم تصيب القلب في مقتل، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

فمهما أطاع العبد ربه والتزم أوامره، وانتهى عما نهى عنه؛ كان قويًّا في مواجهة الفتن، ومهما كان مفرطًا في اتباع الشرع، مقبلًا على المعاصي؛ كان ضعيفًا أمام الفتن، وقد قال بعضهم:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

د - كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ:

فبالذكر يخرجنا الله تعالى من الظلمات إلى النور، رحمة بنا، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣]، والذكر به تطمئن القلوب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

هـ - القرب من العلماء العاملين:

فإن العلماء هم ورثة الأنبياء الذين يأخذون بأيدي أتباعهم إلى الله تعالى، كيف لا؛ وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في حق أهل العلم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [أل عمران:٧]، وقال جل شأنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [أل عمران:١٨].

١٢- لا بد من التضحية:

فإذا كانت حياتك ثمنًا لإظهار الحق للناس؛ فلا تمانع من دفع هذا الثمن؛ وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بدين الله تعالى، فابذل هذا الثمن رخيصًا لله تعالى، كما فعل هذا الغلام، فقد ضحى بحياته من أجل نصرة دين الله تعالى، وكما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقد ضحوا بالغالي والنفيس من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وإعلاء دين الله جَلَّ جَلَالُهُ، بذلوا أموالهم، وأرواحهم فداءً لهذا الدين، وقد جاءنا هذا الدين سهلًا ميسرًا، لا نفتن من أجله، وإن حصلت الفتنة من أجله؛ فزعنا إلى الهرب من هذا الدين، وقمنا بالتنازل عن ثوابتنا ومبادئنا، كما حدث من بعد الأخوة هداهم الله تعالى عقب أحداث مصر الأخيرة؛ فقد حلق كثير من شباب التيار الإسلامي لحاهم خوفًا على أنفسهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

١٣- طلب النصر من الله تعالى على الأعداء:

فقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [ال عمران:١٤٦ - ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ

بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠]، ولهذا لما كان الغلام في المحنة الشديدة؛ وقد أُمِرَ به أن يلقى من على أعلى الجبال، ثم أمر به بعد ذلك أن يلقى في البحر؛ لجأ إلى الله تعالى؛ لأنه يعلم أنه سبحانه وحده هو الذي يقدر على أعوان هذا الملك الكافر، فقال كما جاء في الحديث: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ»، فرجف الجبل بالأولين فسقطوا، وانكفأت السفية بالآخرين فغرقوا، ونجا في كلتا الحالتين؛ فالجأ إلى الله تعالى في شدائدك يكفيك الله منها.

❊ ❊ ❊

القصة السابعة

الرجل الذي لم يعمل خيراً قط

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللهُ مَالًا فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ قَالُوا خَيْرَ أَبٍ قَالَ فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَقَالَ مَا حَمَلَكَ قَالَ مَخَافَتُكَ فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ» [صحيح البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - المسارعة في الخير:

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣ ـ ١٣٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

فسارع إلى عمل الخيرات يا عبد الله قبل فوات الأوان، سابق إلى الجنان والرضوان قبل أن يبغتك الموت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٣ ـ ٥٨]، بادر قبل هذا كله؛ لئلا يقال لك: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٥٩].

بادر وسارع وسابق، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠ - ١١].

٢- فضل خشية الله تعالى وخوفه:

الخوف من الله تعالى كان سبب نجاة هذا العبد، فغفر الله تعالى له ذنبه من أجل خوفه منه الله تعالى وخشيته، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ

ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس:١١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**» [حسن، رواه ابن حبان في «صحيحه»].

٣ - العذر بالجهل:

قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد يستشكل هذا فيقال كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى والجواب أنه لم ينكر البعث وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله [انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد يغلط في بعض الصفات قوم من المسلمين فلا يكفرون بذلك [المرجع السابق].

قال الحافظ ابن حجر متعقبًا لابن قتيبة: وردَّه بن الجوزي، وقال: جحده صفة القدرة كفر اتفاقًا.

وإنما قيل: إن معنى قوله: «لئن قدر الله عليَّ»؛ أي: ضيَّق، وهي كقوله: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ ﴾ [الطلاق:٧]؛ أي: ضيق... ولعل هذا الرجل قال ذلك من شدة جزعه وخوفه، كما غلط ذلك الآخر فقال: «أنت عبدي، وأنا ربك»،

أو يكون قوله: «لئن قدر علي»، بتشديد الدال؛ أي: قدر على أن يعذبني؛ ليعذبني، أو على أنه كان مثبتًا للصانع، وكان في زمن الفترة؛ فلم تبلغه شرائط الإيمان.

وأظهر الأقوال؛ أنه قال ذلك في حال دهشته، وغلبة الخوف عليه؛ حتى ذهب بعقله لما يقول، ولم يقله قاصدًا لحقيقة معناه، بل في حالة كان فيها كالغافل، والذاهل، والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه، وأبعد الأقوال قول من قال إنه كان في شرعهم جواز المغفرة للكافر [المرجع السابق].

***

القصة الثامنة

المتجاوز عن المعسرين

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الْمَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فَقِيلَ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ قَالَ مَا أَعْلَمُ قِيلَ لَهُ انْظُرْ قَالَ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ فَأُنْظِرُ الْمُوسِرَ وَأَتَجَاوَزُ عَنْ الْمُعْسِرِ فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ» [صحيح البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - تسمية ملك الموت:

لم يصح في تسمية ملك الموت اسم إلا وصفه بهذا الوصف (ملك الموت)، فقد جاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تسميته بذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]، وقد ورد في تسميته (عزرائيل) بعض الآثار عن التابعين، ولم يثبت نسبته إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقد قال البغوي**: هو عزرائيل. وقال ابن عطية: اسمه عزرائيل. وقال القرطبي: اسمه عزرائيل، ومعناه عبدالله. وقال الحافظ ابن كثير: سُمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد. وقال الشوكاني: وملك الموت هو عزرائيل.

نقول ومع شهرة ذلك الاسم؛ إلا أنه لم يأت اسمه مصرح به في كتاب الله تعالى، ولا في صحيح سنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ! ويستحسن وصفه بما وصفه به الله تعالى وبما وصفه به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو: (ملك الموت).

٢- فضل إعفاء المعسرين والتجاوز عنهم:

وإعفاء المعسر بمعنى أنك تضع عنه مالك عنده من مال أو غيره، وتتجاوز عنه، فقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**» [صحيح مسلم]. وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُظِلَّهُ اللهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فَلْيُيَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ، أَوْ لِيَضَعْ عَنْهُ**» [رواه الطبراني وصححه الألباني]. وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ**» [رواه الإمام أحمد وصححه الألباني].

٤- الجزاء من جنس العمل:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخبرًا عن ذلك: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**» [صحيح مسلم].

***

القصة التاسعة

الرجل الذي وضع الصدقة في غير موضعها

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ» [رواه البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - فضل عمل السر:

فهذا الرجل كان يتصدق بالليل، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»، وذكر منهم: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» [صحيح البخاري]. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ».

[رواه الطبراني وحسنه الألباني]

٢- السنة النبوية تحث على عمل السر:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبْءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ**» [صحيح الجامع].

٣- حمد الله تعالى على كل شيء:

فقد حمد اللهَ تعالى الرجلُ الصالح عندما علم أنه تصدق على سارق، وزانية، وغني، وهذا يدل على إخلاص هذا الرجل؛ فإنه لم يسخط، ولم يرجع في صدقته، وقد رضي بقضاء الله تعالى وقدره.

٤- لا تبالي على من تصدقت:

فإنك لو تصدقت على أفقر رجل في الدنيا، ولم تكن مخلصًا في هذا العمل ردَّه الله عَزَّوَجَلَّ عليك، ولم يقبله منك، وإنك لو تصدقت على غني، أو سارق، أو زانية، وكنت مخلصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تقبل الله عَزَّوَجَلَّ منك، كما جاء في رواية أخرى أن صدقته قبلت.

٥- الرؤيا الصادقة من المبشرات:

وقد جاءه في منامه من بشره بأن الله قبل صدقته، وأثابه عليها، وأعلمه بحكمة عظيمة من وراء التصدق على هؤلاء الثلاثة؛ فلعل السارق أن يستعفف بها عن السرقة، ولعل الزانية أن تستعفف بها عن الزنا، ولعلها تدفع الغني إلى الإنفاق تأسيًا بهذا الرجل الذي يتصدق بالليل ساترًا نفسه عن

العباد طالبًا الأجر من رب العباد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ [صحيح القصص النبوي للدكتور الأشقر].

٦- الصدقة تحل مشاكل كثيرة:

فإن كثرت الصدقة؛ قل الزنا، وقلت السرقة، وقلت الرشوة، وقلت المعاملات الربوية، ولم يحقد الفقير على الغني؛ لأن الدين الإسلامي يحث على التكافل الاجتماعي، والترابط بين أفراده، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا في الحديث الصحيح: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» [صحيح البخاري].

***

القصة العاشرة

الأبرص، والأقرع، والأعمى

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا لله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ قَالَ فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا وَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله. فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ وَأَتَى

الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي فَخُذْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » [رواه البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - بعض الناس لا يصلحهم إلا الابتلاء:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٧].

والبلاء يكون فقرًا، أومرضًا؛ لأنه لو رزق الله جميع عباده بالمال لطغوا؛ كما في الآية، فكان من رحمة الله أن يفقر أناسًا، وأن يبتلي آخرين بالمرض، فالله عَزَّوَجَلَّ أعلم بما يصلح العبد، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٧].

٢ - الابتلاء اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ:

نعم، هو اختبار من الله لعباده، وكذلك النعمة؛ اختبار أيضًا، فالابتلاء يكون معه الشكر لله، وألا تعصي الله بهذه النعمة، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم

بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥]، ومعنى هذا: أن الله عَزَّوَجَلَّ إن أعطى العبد ليس كرمًا له، بل هذا اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، فإن شكر؛ كان له الرضا، وإن منعه فسخط؛ فعليه السخط.

٣- المؤمن مع البلاء صابر، ومع النعمة شاكر:

كالرجل الأعمى في القصة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥ ـ ١٥٧]. وقال جل شأنه: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم:٧].

٤- الإنسان الجاهل يبخل:

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا».

[صحيح البخاري]

٦- المؤمن لا ينسى:

لا ينسى المؤمن أيام الفقر، ويتواضع للناس، ويكون أحن الناس على الفقراء، والمساكين، وهكذا كان الرجل الأعمى؛ فتذكر نعم الله تعالى عليه

[من بديع القصص النبوي].

٧ - إنكار النعمة يجلب على العبد النقمة:

وأيضًا يسبب له الشقاء، ويكون سبب لذهاب النعمة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

٨ - الكرم يجلب النعمة:

ويذهب النقمة، ويرضي الرب جل شأنه، والبخل يجلب السوء، ويسخط الرب، كيف لا، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج:١٩ - ٢٥].

***

القصة الحادية عشر

الرجل الذي أدى الله عنه

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ. فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا. فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ. ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا» [رواه البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١- فضل القرض:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كُلُّ قَرْضٍ صَدَقَةٌ**» [رواه الطبراني وصححه الألباني]، وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرَّتَيْنِ إِلَّا كَانَ كَصَدَقَتِهَا مَرَّةً**» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].

٢- القرض يحل أزمة الربا:

من أحكام الإسلام المحكمة أن الله تعالى شرع القرض، وأثاب عليه، ورغب فيه، ولو ساد القرض الحسن بين المسلمين؛ لحل أزمة القرض الربوي.

والذي يخرج القرض بالربا قد حُرِم من أجر الآخرة عند الله عَزَّوَجَلَّ، وحُرم محبة المسلمين، وقد ارتكب أثمًا عظيمًا، وكبيرة من أكبر الكبائر، وعرَّض نفسه لعذاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومحَقَ ماله، كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

٣- اعتماد المؤمن على ربه:

فقد جاء في الحديث أن الرجل المقرض قال للمقترض: «**ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ فَقَالَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا**» [صحيح البخاري]، فالمؤمن دائم التعلق بالله عَزَّوَجَلَّ، دائم المراقبة له.

٤- كمال إيمان المقرض:

ذلك بأنه رضي بالله شهيدًا، ورضي بالله وكيلًا، وهذا إن دل؛ فإنما يدل على كمال إيمانه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٥-أدَّى الله عنه:

ذلك لأنه أخذ المال وهو يريد أداءه، فأدى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، كما جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**» [صحيح البخاري].

٦- وفاء المؤمنين بعقودهم:

إن المؤمنين مأمورون بالوفاء بالعقود، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، أما المنافقون فيتعمدون عدم الوفاء، وهذا المقترض رغم كل الظروف والعقبات التي مر بها؛ أراد أن يوفي بسداد القرض، وحاول جاهدًا في هذا الأمر، فلم يمكنه فعل ذلك؛ فاعتمد على الكفيل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأخذ خشبة، فنقرها فأدخل فيها المال ومعه رسالة لصاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أرسلها في الماء، ثم قال كما في الحديث: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ**» [صحيح

البخاري]، والعاقل بديهةً يعرف استحالة وصول المال بهذه الطريقة، ولذلك لم يكتف هذا الرجل بأن أرسل المال في الخشبة التي من المستحيل أن تصل إلى صاحب المال؛ فظل يبحث عن مركب حتى وجد المركب، فقدم على صاحبه، ومعه المال، وقال لصاحبه، كما في الحديث: «**وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ**» [صحيح البخاري].

٧- أمانة الرجلين:

فعندما عثر المقرض على المال والصحيفة في الخشبة؛ أخذ المال، ولم يكتمه عن صاحبه، وكذلك المقترض لم يكتف بوضع المال في الخشبة مع الصحيفة، وإلقاء الخشبة في البحر؛ بل اجتهد في الوصول إلى صاحبه ومعه المال ليدفعه إليه، ولم يخبر صاحبه أنه أرسل إليه شيئًا في الخشبة، ولا غيرها، ولم يكتم المقرض أمر الخشبة؛ بل قال لصاحبه، كما في الحديث: «**هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟**»، وهنا عرَّض المقترض، ولم يخبره بشيء؛ لأنه لا يصح أن يفعل ما فعل من إرسال المال في الخشبة، ثم يقول له: أنه أرسل إليه المال، فقال له كما في الحديث: «**أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ**»، فقال المقرض: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا**»، ولوكان المقرض غير أمين لأخذ المال، وكتم أمر الخشبة.

٨- لا بد من كتابة الحقوق:

إن الذي حدث في هذه القصة إنما يحدث مع الأتقياء، الأنقياء، الأمناء من الصالحين الذين يخشون الله تعالى، ويخافون عقابه، ولهذا شرع الله تعالى لنا كتابة الدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢].

***

القصة الثانية عشر

جريج العابد والمتكلمون في المهد

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ كَانَ يُصَلِّي جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ قَالَ الرَّاعِي قَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا فَقَالَتْ لِمَ ذَاكَ فَقَالَ الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ وَلَمْ تَفْعَلْ» [صحيح البخاري].

الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة:

١ - قدرة الله عَزَّوَجَلَّ:

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنطق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في المهد، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٢٩ - ٣٣].

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أنطق الطفل الذي بَرَّأ جريجًا العابد، وهو الذي أنطق الطفل الذي كان يرضع من أمه.

٢- جواز ترك السنة للضرورة:

قال أهل العلم: إذا دعى الوالد أو الوالدة ابنهما وهو يصلي السنة؛ فإنه يجوز له أن يخرج من صلاته تلبية لأمرهما؛ لأن طاعتهما واجبة، وهي قربة إلى الله تعالى، ولكن إن تعمَّد الوالد أو الوالدة نداء ابنهما كلما دخل في صلاة السنة؛ فمن الأفضل ألا يجيبهما حتى يفرغ من صلاته.

٣- دعاء الوالدين مستجاب:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ»، وذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهن: «وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» [رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

وفي هذه القصة قد استجاب الله تعالى دعاء أم جريج، فقد قالت في دعائها كما في الحديث: «اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ»، وفي رواية لمسلم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ» [صحيح مسلم].

٤- لا يسلم الصالحون من المجرمين:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين:٢٨ - ٣٢]، وقوم جريجٍ لم يتركوه في حاله، وفي عبادته، بل أرادوا أن يفسدوا عليه عبادته، ويقع في الحرام، وهذا شأن المجرمين في كل زمان ومكان حتى أنهم لم يسلم منهم الأنبياء، فقد قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

٥- اللجوء والفزع إلى الصلاة:

كما فعل جريج العابد، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦]، وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر صلى [حسن رواه أبو داود].

٦- وجوب الصبر عند البلاء:

ففي الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على مرأة عند قبر تبكي فقال لها: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي»، قَالَتْ إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ فَقِيلَ لَهَا إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» [صحيح البخاري]، وهكذا كان جريج العابد، فصبر عندما ادَّعت عليه المرأة أنه قد زنا بها، وأن الطفل الذي انجبته ابنه، فنجاه الله عَزَّوَجَلَّ بصبره فصار عند الناس بعد البلاء أفضل مما كان عندهم قبله.

٧ - لا رهبانية في الإسلام:

فالرهبانية بدعة نصرانية ابتدعها النصارى، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٧].

فليست الرهبانية من الإسلام في شيء، فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت امرأة عثمان بن مظعون، وهي باذة الهيئة، فسألتها عن ذلك، فقالت: زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكرت ذلك له، فلقي رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يَا عُثْمَانُ، إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَحْفَظَكُمْ لِحُدُودِهِ لَأَنَا**».

[صحيح، رواه عبد الرزاق في «المصنف»]

٨ - عدم الاغترار بالأشخاص:

فمهما كان معهم من الأموال، أو كانوا من أصحاب المناصب الدنيوية، والشهرة، فربما كان لا يساوي شيئًا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» [صحيح البخاري].

٩- التثبت، وعدم رمي الناس بالبهتان:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٩].

فلا بد من التثبت، وطلب البينة، ولذلك شرع الله تعالى لنا ألا نثبت جريمة الزنا إلا بأربعة شهداء عدول ليس بفاسقين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةٗ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٤].

فمن رمى امرأة أو رجل بالزنا، ولم يأت بأربعة شهداء يشهدو على ما رماهما به؛ جلد ثمانين جلدة، كما نصت الآية على ذلك. فلا يجوز المسارعة بتصديق الشائعات، والتهم من غير دليل، ولا برهان كما فعل أهل القرية عندما صدقوا ما قالته المرأة الفاجرة في جريج العابد.

هذا ما يسر الله تعالى لنا جمعه، وترتيبه، ونسأل الله تعالى إن كان في هذا العمل سهوًا، أو تقصيرًا، أو نسيانًا؛ أن يغفره لنا، وإن كان فيه من توفيق؛ أن يجعله في ميزان حسناتنا، وأن يجعله زادًا للوصول إليه، وعتادًا ليُمنِ القدوم عليه، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا، ونعم الوكيل.

***

المحتويات

مقدمه ٥

قصة البقرة

ذكر بسط القصة ٧

قصة النمرود مع سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٥

تعريف العبادة؟..... ٣٤

والفرق بين الشرك والإلحاد ٣٨

قصة الرجل الذى أماته الله تعالى مائة عام ثم أحياه .. ٥٠

قصة طالوت وجالوت ٦١

قصة أصحاب السبت ٧٣

فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٨٢

١- الفلاح في الدنيا والآخرة:..... ٨٢

٢- تكون حقًّا من أهل الآخرة:..... ٨٣

٣- سبب الرحمة: ٨٣

٤- هم الذين اشتراهم الله تعالى:..... ٨٤

٦- النجاة من العقاب: ٨٤

٧- له أجر من تبعه: ٨٥

٨- سبب التمكين في الأرض: ٨٥
٩- سبب النجاة في الدنيا والآخرة: ٨٥
١٠- من صفات المؤمنين: ٨٥
١١- ليس أحد أفضل منك: ٨٦
١٢- من الصدقات: ٨٦
حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٨٦
ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٨٧
آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٨٩
قصة الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ٩٣
قصة أصحاب الكهف ١٠٦
قصة أصحاب الجنتين ١٣٦
قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ١٤٥
ما الإيمان؟ ١٧٠
الأدلة على أن الإيمان يزيد ١٧١
الأدلة على أن الإيمان ينقص ١٧١
تعريف التقوى ١٧١
هؤلاء ليسوا بأولياء بل هم أولياء الشيطان ١٧٦
العصمة ليست شرطًا في الولاية ١٧٨

لا بد من العرض على الكتاب والسنة ١٧٩
قصة ذي القرنين ١٨٢
قصة قارون ٢٠١
قصة قوم سبأ ٢١٨
بعض أمثلة الشرك الأكبر في الألوهية ٢٢٧
١ ـ دعاء غير الله من الأموات: ٢٢٧
٢ ـ الذبح لغير الله: ٢٢٨
٣ ـ النذر لغير الله: ٢٢٨
٤ ـ الإستغاثة بغير الله: ٢٢٩
٥ ـ الإستعاذة بغير الله: ٢٣٠
٦ ـ الاستعانة بغير الله: ٢٣٠
٧ ـ الطواف بالقبور: ٢٣١
بعض أمثلة الشرك الأصغر في الألوهية ٢٣١
١ - يسير الرياء الداخل في تحسين العمل: ٢٣١
٢ - الحلف بغير الله: ٢٣٢
٣- قول: «ما شاء الله وشئت»: ٢٣٢
٤ - التبرك بشجرة، أو حجرة، أو قبر: ٢٣٣
٥ - تعليق التميمة: ٢٣٤

قصة مؤمن آل يس..... ٢٣٧
فضائل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: ٢٥٢
قصة مؤمن آل فرعون..... ٢٧١
قصة أصحاب الجنة ٢٨٧
قصص السنة النبوية ٢٩٣
القصة الأولى
قصة أصحاب الغار..... ٢٩٣
صور التوسل المشروع:.....٢٩٦
صور التوسل المحرم: ٢٩٩
كيف تبر والديك؟ ٣٠٦
القصة الثانية
سحابة تؤمر أن تسقي أرضا بعينها.....٣١٦
القصة الثالثة
قصة البغي التي غفر الله لها ٣٢٢
القصة الرابعة
قصة المرأة والهرة ٣٢٦
القصة الخامسة
الرجل الذي قتل مائة نفس.....٣٣١

القصة السادسة

الغلام والراهب ٣٤٢

القصة السابعة

الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط ٣٥٤

القصة الثامنة

المتجاوز عن المعسرين ٣٥٨

القصة التاسعة

الرجل الذي وضع الصدقة في غير موضعها ٣٦٠

القصة العاشرة

الأبرص، والأقرع، والأعمى ٣٦٣

القصة الحادية عشر

الرجل الذي أدى الله عنه ٣٦٧

القصة الثانية عشر

جريج العابد والمتكلمون في المهد ٣٧٢

تم بحمد الله